

حتى يغيروا ما بأنفسهم



حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ

سُنَن التَّغيير

حتّى يغيّروا ما بأنفسهم

جودت سعيد

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

تصوير ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م

الكتاب ٨٩٤

الطبعة السابعة ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م

ط ١ ١٩٧٢ م

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير ، حلف الكارلتون ، س . ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٢٩) تلكس : FIKR 44316 LE

الصف التصويري : دار الفكر بدمشق

الحمدُ لله

وسَلامٌ على عِبَادِهِ الَّذينَ اصْطَفَى

رَبَّنا تَقَبَّل مِنّا

إنَّكَ أنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

[الرَّعد : ١١]

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعمَةً أنعَمَها عَلَى
قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأنفُسِهِمْ ﴾

[الأنفال : ٥٣]

كلمة الناشر

لقد بدأ المؤلِّف يطرح أفكاره ضمن سلسلة اختار لها عنوان (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، منذ حوالي ثلث قرن ، في محاولة منه للإسهام في معالجة مشكلة تخلف المسلمين ، وانعدام فعاليتهم ، وغيابهم عن التأثير في أحداث العالم ، وعجزهم عن مواجهة الغزو الاستعماري الذي نجح في استضعافهم واستذلالهم ، ونهب خيراتهم ، واستغلال مواردهم .

وعلى الرغم من البطء في انتشار هذه الأفكار ، ودخولها في وعي المثقفين ، بسبب الحجب الكثيفة المسدلة على العقول ، وسيطرة الفكر التقليدي على الأذهان ، والخوف من التغيير الذي جعله الله تعالى الطريق الوحيد للنهوض من العثار في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

وعلى الرغم من سقوط العمل الإسلامي خلال هذه الحقبة في المحاذير التي نبَّه إليها المؤلف ، وغرق العديد من بلدان العالم الإسلامي في دوامة العنف التي حذر منها ، واعتبرها أم المشكلات ، ورأس الفتن والبلايا ..

وبعد ثلث قرن من التجارب والمعاناة لهموم المسلمين ، فإن المؤلف يبدو أكثر اقتناعاً بأفكاره التي سبق أن طرحها ، وأكثر إصراراً على نشرها وترسيخها في ذاكرة الأجيال ، عسى أن يخرج منهم شباب أكثر وعياً ، وأعمق فهماً ، وأرحب صدراً ، وأوسع انفتاحاً ، وأقدر على توجيه مجتمعاتهم المتخلفة نحو الرقي والحضور على مسرح الأحداث العالمية ، والإسهام الإيجابي في صنعها .

يبدو ذلك من مقدمته التي كتبها لهذه الطبعة الجديدة المنقحة من سلسلة (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، والتي آثرنا أن نصدر بها كتابه الأول في هذه السلسلة : (مذهب ابن آدم الأول) ، وأن ننوِّه عنها في بقية الكتب ، دون أن نكررها في كل واحد منها ..

آملين أن نكون بذلك قد أسهمنا في نشر هذه الأفكار والترويج لها ، كي تصل إلى مستوىً أوسع من القراء في العالم العربي والإسلامي ، تاركين للقراء أن يسهموا ، بوعيهم وشعورهم بالمسؤولية عن أداء الأمانة ؛ في تحويل هذه الأفكار إلى نطاق الفعالية ، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر : ﴿ وَمَنْ أَحسَنُ قَولاً مِمَّن دَعَا إلى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَقَالَ إنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصّلت ٤١/٣٣] ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾ [البقرة ٢/١٤٠] .

المحتوى

الموضوع	الصفحة
كلمة الناشر	٩
المحتوى	١١
تقديم مالك بن نبي	١٩
دور الحركات التغييرية في العالم الإسلامي	١٩
القانون وموقف الإنسان منه	٢٠
التاريخ بين الحتمية والقابلية للتغيير	٢١
القرآن يجعل التغيير خياراً يقوم به البشر	٢٢
مقدمة الطبعة الرابعة	٢٣
هل التغيير ممكن ؟	٢٤
كيف يحدث التغيير	٢٥
ما الذي ينبغي أن نغيره ؟	٢٦

الموضوع	الصفحة
مدخل	٢٧
إهمال الشباب المسلم لدراسة موضوع جاد	٢٧
للعقل موقفان إزاء المشكلات	٣١
معرفة القانون تمنح الإنسان القدرة على تسخيره	٣٣
التسخير في مجال الكائن الحي .	٣٤
التسخير في مجال المجتمع	٣٥
القرآن يذكر مرض القلب بوصفه مرضاً اجتماعياً لا عضوياً	٣٨
الرسول يضرب المثل المادي مقروناً بالمثل الاجتماعي	٤٠
العلم طريق الإنسان للتغيير	٤٣
سنن التغيير ومفهومها في القرآن	٤٩
سنة عامة للبشر	٥١
مضمون الآية ينطبق على كل البشر	٥١
مشكلة مجتمع لا مشكلة دين	٥٣
أوهام المسلمين عقبة في طريق التغيير	٥٦
سنة اجتماعية لا سنة فردية	٥٩
التوازن بين الكم والكيف	٦٠
التوازن في الجسد تحكمه الغريزة وفي المجتمع يحكمه العقل	٦٢

الموضوع	الصفحة
سنة دنيوية لاأخروية	٦٤
المسؤولية في الدنيا جماعية وفي الآخرة فردية	٦٤
التغييران : تغيير الله وتغيير القوم	٦٦
ترتيب حدوث التغييرين	٦٧
تغيير الله مترتب على تغيير القوم	٦٧
مجال كل من التغييرين	٦٩
مجال تغيير ما بالقوم	٦٩
مجال تغيير ما بالأنفس	٧٣
ابن خلدون أول من لمح الارتباط بين التغييرين	٧٣
تغيير ما بالأنفس هو الأهم	٧٩
الإنسان وحمله للأمانة	٧٩
النفس بين التزكية والتدسية	٨٠
معنى الفطرة	٨٣
تغيير ما بالقوم نتيجة لتغيير ما بالأنفس	٨٦
لماذا ترتبط النتائج بالأسباب ؟ سؤال قليل الجدوى	٨٧
كيف نحصل على النتائج المفيدة ؟ هو السؤال الأنفع	٨٨
ما الغاية ؟ سؤال أهل العلم والحكمة	٨٨

الموضوع الصفحة

مخاطر خفاء الرابطة بين النتائج وأسبابها ٩١

لا بد من توفر التغييرين ٩٢

التلازم بين عمل الإنسان وخلق الله ٩٢

القرآن يـذكر العملين متلازمين أحيـانـاً ومنفردين أحيـانـاً أخرى ٩٥

ابن كثير يشرح ذلك في تفسيره ويرفع الالتباس ٩٦

مشيئة الله عند ابن تيمية كونية وشرعية ٩٩

الأفعال وليدة الأفكار ١٠٢

مفهوم التغيير عند الآخرين ١٠٣

مفهوم التغيير عند الآخرين ١٠٥

دعوى الشيوعيين أنهم أول من جعل التغيير علماً موضوعياً ١٠٥

خطأ الشيوعيين في نبذ كل نظرية إيمانية ١٠٨

علم النفس الفردي والاجتماعي ١١٠

لا وجود لعلم نفس فردي منفصلاً عن المجتمع ١١٠

معرفة سنن دمج الفرد بالمجتمع تمكن من صنع المجتمع المتماسك ١١٢

تقديم العلوم بصورة تعارض الإيمان يضيع الاستفادة منها ١١٣

العلاقة بين سلوك الإنسان وما بنفسه ١١٧

الموضوع	الصفحة
سلوك الإنسان نتيجة لأفكاره	١١٩
أسطورة العملاقين	١٢٠
قصة نعيم بن مسعود في غزوة الخندق	١٢٣
الحرب النفسية	١٢٥
ما بالنفس ينتج آثاره ولو كان وهماً	١٢٧
الأوهام المسيطرة على الأفراد والشعوب تنتج أفعالاً خاطئة	١٢٨
حماية البشر من الأوهام في نظر الغزالي وغيره	١٢٩
ما بالنفس يتفاوت في الرسوخ	١٣٤
عوامل ترسيخ الأفكار	١٣٤
رسوخ الأفكار يجعلهاتعمل بصورة آلية	١٣٥
أهمية ترسيخ الأفكار في مرحلة الطفولة	١٣٨
كلام ابن خلدون عن الأفكار حين تصبح ملكة	١٣٩
توازن المجتمع وتنميته رهن بتوحيد ثقافته وفكره	١٤٢
أعمار المجتمعات والدول عند ابن خلدون	١٤٣
الجهل بسنن التغيير يؤدي بالمسلمين إلى انتظار المهدي	١٥١
الفكرة الراسخة تصبح مصدراً للأخلاق	١٥٣
حديث زياد بن لبيد عن أوان ذهاب العلم	١٥٥

الموضوع	الصفحة
القرآن والعقل والسنن	١٥٩

كيف تلقى السنن القبول عند المسلمين	١٦١
الدعوة إلى سنن التغيير يجب أن تكون مستندة إلى القرآن	١٦١
إلحاح القرآن على الاعتبار بسنن الأولين	١٦٣
الاستكبار عن الأخذ بالحق في نظر القرآن	١٧٢
قاعدة هامة مستنبطة من حديث ذهاب العلم	١٧٧
ليست المشكلة في الإسلام وإنما هي في عقل المسلم	١٨٣
صعوبة قبول المسلم لفكرة خفيت على السابقين	١٨٥
« أفلا تعقلون » طريقة القرآن في إعادة الفعالية للعقل المسلم	١٩٤
إدراك السنن طريق المسلمين إلى نهضتهم	١٩٥
العقل والسنن في القرآن	٢٠١
اعتقاد العبثية في الوجود مصدر أساسي للعطالة	٢٠٢
١ ـ آفة الغفلة	٢٠٤
٢ ـ آفة الإعراض عن آيات الله وسننه	٢٠٥
٣ ـ آفة التكذيب وافتراء الكذب	٢٠٥
٤ ـ آفة اتباع الهوى	٢١٢

د ـ آفة اتباع الآباء ٢١٤
المبررات التي يخترعهاالمسلمون لتغطية فشلهم ٢٢٥
الفعل والانفعال ٢٣٠
آلية العمل بين المستويين العضوي والفكري ٢٣٠
التماسك والنضج يزيدان من سيطرة الإنسان على انفعالاته ٢٣١
أمثلة من الأفغاني ولورانس ٢٣٣
المنهج والتطبيق ٢٣٩
١ ـ جانب فصل القاعدة عن التطبيق ٢٤٠
٢ ـ جانب تعميم السنة ٢٥٣

تقديم مالك بن نبي

إن المتتبع لأحوال العالم الإسلامي ، يلاحظ أن الحركات التغييرية ، التي قامت فيه منذ عصر شيخ الإسلام ابن تيمية ، بل منذ عصر الغزالي إلى عصرنا هذا لم يكتب لها النجاحُ إلا في بعض التغييرات السياسية ، كالتي حققتها دولة الموحدين في حدود قيامها بالشمال الإفريقي والأندلس ، حيث كان لها على الأقل دورُ المعطِّل لحركة التحلُّلِ التي ستؤدي إلى سقوط غرناطة .

أما الحركات التغييرية التي قامت في العصور المتوسطة على اجتهاد فردي ، مثل اجتهاد ابن تيمية فإن أثرها لم يبق إلا في التراث الإسلامي حيث تكوِّن التَّرسَانَةَ الفكرية التي لا زالت تُمِدُّ الحركات الإصلاحيةَ بالأفكارِ النَّمُوذجية إلى اليوم .

ولكن لم يكن نصيبُ الحركات التغييرية المعاصرة بأوفرَ من السابقات ، سواء كانت قائمة على الاجتهاد الفردي ، مثل دعوة جمال الدين الأفغاني ، أو على جهد منظم ، أو شبه تنظيمي ، مثل الحركة السلفية في الجزائر قبل الحرب العالمية الثانية .

وقد يتأتى تفسيرُ فَشَلِ هذه الحركات التغييرية على أنها أتت في

مجتمع لمْ يبق فيه مجالٌ للتغيير بالنسبة للحركات الأولى ، أو لم يُفْسح فيه بعد مجال للتغيير بالنسبة للحركات المعاصرة . وهذا التفسير المرحلي يقنع من يؤمن بمراحل التاريخ ؛ أي بالدورة الحضارية ، مثل مؤلف هذا الكتاب .

ولكن الأخ جودت سعيد لم يحاول هنا نقل اقتناعه الشخصي إلى القارئ ، بل نراه كأنه يحاول تخليصه من الحتمية التي يتضمنها هذا الاقتناع .

إن كلَّ قانون يفرضُ على العَقْل نَوْعاً من الحتمِيَّةِ تُقَيِّدُ تَصَرُّفَهُ في حدودِ القانون .

فالجاذبية قانون طالما قيَّد العقل بحتمية التنقل برّاً أو بحراً . ولم يتخلص الإنسان من هذه الحتمية بإلغاء القانون ، ولكن بالتصرف مع شروطه الأزلية بوسائلَ جديدة تجعله يعبر القارات والفضاء ، كما يفعل اليوم .

فإذا أفادتنا التجربة شيئاً ، إنما تُفيدنا بأن القانون في الطبيعة ، لا ينْصِبُ أمام الإنسان الدائب استحالةً مطلقة ، وإنما يواجهه بنوع من التحدي يفرض عليه اجتهاداً جديداً للتخلص من سببيةٍ ضيقة النطاق .

وكأنما الأخ جودت سعيد يَنْقُلُ هذه القضية من مَجَالِ الطبيعة إلى مجال التاريخ .

إنَّ من يؤمن بمراحل التاريخ مِثْلَهُ قد يستعصي عليه فكرة تطويع التاريخ لمبدأ التغيير ، مع هذا فهو يحاول تخليص مفهوم التغيير الاجتماعي من قيود السببية المقيِّدة ، كما تربطه بها النظرة الشائعة عند المؤرخين ، أمثال ج .أ. طوينبي ، الذين يرون أن الأشياء في التاريخ تسير طبقاً لسببية مرحلية .

والأشياءُ تَسيرُ فِعْلاً كَذَلِكَ إِنْ تُرِكَتْ لِشَأْنِها .

وإنما الأخ جودت سعيد يعلَم ، كمسلم متشبع بالثقافة الإسلامية ، أن التغيير ، أي التاريخ ، يخضع أيضاً لقانون النفوس .

فتصفية هذه المناقضة هي بالضبط محاولة الأخ جودت سعيد ، إننا نراه يتخذ كمحور لكتابه ، الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم ﴾ [الرَّعد : ١١] ، ويتخذ من بعضها عنوان هذا الكتاب .

وبذلك تتغير وجهة النظر في سير التاريخ ، إذ إن المراحل التي تتقبلُ أو لا تتقبلُ التغييرَ حَسْبَ طبيعتِها ، تصبحُ مراحلَ قابلةً كُلها

للتغيير ، لأن الحتميةَ المرتبطة بها أصبحت اختياراً يتقرر في أعماق النفوس .

لقد أشادت أيضاً الحركاتُ التغييريةُ التي سبقت في العالم الإسلامي بهذه الآية كشعار ، ولكن يبدو أنها لم تضع في هذا الشعار سوى التبرك بكلام الله ، والتفاؤل به ، بحيث لم يكوّن بيدِها في حقيقةِ الأمر وسيلةَ تغيير ، أو إذا شئنا قلنا : إنها وضعت في الآية الكريمة مُجَرَّدَ المحتوى الغيبي ، حتى إنه يمكننا القول بأن المفعولَ الاجتماعي للآية ، قد عُطِّل بهذه الطريقة .

ولعل اتخاذ الآية كمحور ، وكعنوان ، لهذا الكتاب يكون له ـ وفي هذه الظروف بالذات ، حيث تنتهي تجاربُ الجيل السابق ـ أثَرَهُ في تجربة هذا الجيل ، إذا قام بالتغيير الذي لا زال العالم الإسلامي ينتظره .

طرابلس ١٨ ربيع الأول ١٣٩٢ هـ
٢ مارس (آذار) ١٩٧٢ م

مالك بن نبي

مقدمة الطَّبعة الرَّابعة

بسم الله .. الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ..

سئلت عدة مرات بعد ظهور هذا الكتاب سؤالاً محتواه :

إنك لم تبيِّن سُنن التغيير ، ولا كيف يتحقق التغيير ؟

إن هذا السؤال يحتوي ضمناً على التسليم بأن هناك سنناً لتغيير ما بالنفس . وهذا التسليم يعتبر خطوة هامة ـ مع اعترافنا بتفاوت درجاته ـ سواء أسهمت قراءتهم لهذا الكتاب بهذا التسليم ، أم لم تسهم .

وربما كان أهمّ ما يتوجه إليه هذا الكتاب ، الوصول إلى هذا الاعتراف ؛ لأن جهد الإنسان لتحصيل شيء ما ، لا يحصل إلا إذا سلَّم أولاً بإمكانه .

ويشتمل موضوع التغيير على جوانب :

١ ـ هل التغيير ممكن ؟ وإن كان ممكناً فهل له سنن ؟

٢ ـ كيف أغيّر ؟ أو كيف يحدث التغيير ؟

٣ ـ ماذا أغيّر ؟

هذا وقد كان هدف هذا الكتاب يتوجه إلى الموضوع الأول مباشرة ، وإلى الموضوع الثاني تبعاً ، وإلى الثالث ضمناً . وليس بين الموضوعين الأول والثاني فاصل دقيق ، لأن التسليم بإمكان التغيير لا يأتي إلا إذا لاحظ أمثلة في كيف يتم التغيير ...

فإذا أمكن للإنسان أن يلاحظ التغيير الذي يحدث في الواقع ولم يعرف سنن هذا التغيير ولا كيف يحدث ... فإن هنا يمكن أن يؤدي به إلى الجبرية والحتمية التي تستبعد سلطان الإنسان على هذا التغيير ..

إن مثل هذا التسليم بإمكان التغيير ، وأن له سنناً ، لا يؤدي إلى فاعلية الإنسان ، إلا إذا شاهد الدور الذي يمكن أن يقوم به الإنسان .

وللإجابة عن السؤال الأول : يكفي أن نلقي نظرة إلى واقع البشر لمشاهدة التغيير . ولعلّنا نسمع يومياً حديث الناس بشعورهم بالتغيير سواء في إمكانات الناس الاقتصادية والصناعية ، أم في التغيير الأخلاقي الذي يلاحظ بين الأجيال ، إذ إن هذا التغيير مشاهَد ...

أما كشف أن هذا التغيير خاضع للسنن ، وأن الإنسان له سلطان على ذلك ، فهنا يحتاج إلى جهد أكبر . وميزة ابن خلدون أنه لاحظ

لهذا التغيير سنناً ، فقد تحدَّث عن الأجيال الأربعة في نشأة الدول وانهيارها ، ولكن ابن خلدون لم يلاحظ إمكان السيطرة على هذه السنن . وأما الكشف العلمي بأن هذه السنن تخضع لسلطان الإنسان بشكل من الأشكال ، فقد تنبَّه إليه في العصر الحديث إنسان محور واشنطن ـ موسكو ، قبل غيره .

لقد كان جهدي كله في هذا الكتاب ينصبّ على بيان أن وظيفة تغيير ما بالنفس هي وظيفة الإنسان . وتفسير الآية التي هي عنوان الكتاب ، كان يدور حول هذا الأساس .

والجواب عن السؤال الثاني هو : لم يكن الموضوع المباشر للكتاب أن نتحدث عن كيفية التغيير .. إلا أن الأمثلة التي ذكرت في الكتاب ، كلها مبنيَّة على هذا ، وأهمها الأمثلة المذكورة في فصل (العلاقة بين سلوك الإنسان وما بنفسه) . وهذا الموضوع لبُّ المشكلة ، وهو تحصيل العلم وفتح الأسماع والأبصار لتحصيل أفكار موضوعية عن أسباب الأحداث والتغييرات ، وهو موضوع رؤية آيات الله في الآفاق والأنفس .. أي إحداث مواقف جديدة برؤية جوانب أعمق وأوسع للأحداث .

إن كل فكرة وخبرة تُقدَّم للإنسان ، تؤثر في موقفه . وهذا هو

التغيير ، فكل صورة تُعرَض على الأبصار ، وكل خبر يُعرَض على الأسماع يهدف ولو ضمناً إلى تغيير موقف ، أو يُحدث بالفعل تغيير موقف .. سواء كان هذا الموقف إيجابياً أم سلبياً ، وإنما يتجلى الحذق في إعطاء مواقف أسلم وأيسر .

وأما جواب السؤال الثالث ، فهو يشبه الإجابة عن سؤالك : « ماذا أصنع من الحديد بعد أن أعرف صناعة الحديد ؟ » . وبالنسبة للمسلم ؛ فإن كل أحلامه أن يغيِّر وضعه ووضع العالم إلى الإسلام . فهو عموماً يعرف ـ أو يدَّعي أنه يعرف ـ جواب السؤال الثالث ، فهو يعرف ماذا يريد ، ولكنه يجهل كيف يحقق ما يريد .:. لذا عليه أن يتعلَّم ذلك ، وهذه الحاجة هي مصدر السؤال الذي ينبئ عن شعور القارئ بالحاجة إلى المزيد من الوضوح والبيان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

٢٥ شوال / ١٣٩٨ هـ
٢٧ أيلول / ١٩٧٨ م

جودت سعيد

مدخَل

في شباب العالم الإسلامي من عندَهُم استعدادٌ لبذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الإسلام ، ولكن قلَّ أن تجدَ فيهم من يتقدم ليبذل سنين من عمره ليقضيها في دراسة جادة ، ليُنضِجَ موضوعاً ، أو يصل به إلى تجلية حقيقة ، مثلاً كمشكلة الانفصال الذي يعيشه المسلم بين سلوكه وعقيدته ، إذ كثير من الأسئلة التي تطرح ، ولا جواب شافياً لها ، مع أنه لا يمكن التغيير من وضع إلى وضع ، إلا بعد إجابة موضوعية عن هذه الأسئلة ، ولا يمكن ذلك إلا بعد الدرس والتحصيل .

والسبب في بُطء نُمُوّ دراسات من هذا النوع ، هو أنه لم تكشفْ بعدُ قيمة الدراسةِ في الوسطِ الإسلامي ، الذي ظلَّ وقتاً طويلاً يرى (السيفُ أصدق أنباء من الكتب) ولم يكن اتجاهه إلى أن (الرأي قبل شجاعة الشجعان) .

وظلَّت هذه الآراء المختلطة ، في ظلمات بعضها فوق بعض . ولم يروا العلاقة الصحيحة بينهما ولا الترتيب الطبيعي لها .

كما لم تُدرَسْ بعدُ في العالم الإسلامي شروطُ الإيمـان ، وليس معنى هــذا أنهم لم يحفظـوا أركانَ الإيمـــان والإســـلام ، ولكن نعني بشروطِ الإيمان ؛ الشروط النفسية ، أي ما يجب تغييره ممـا بـالنفس ، لأن هـذا التغيير هو الـذي ينتج ثمرات الإيمـان ، أي شروط مطـابقـة العمل مـع العقيدة ، وموانع إعطاء العقيدة ثمراتها .

وإلى الآن يُنْظَر إلى بـذل المـال وبــذل النفس ، على أنهـا أعلى المراتب ، دون مراعاةِ ما يجعل بذلَ المالِ والنفس مجدياً . إذ ليس الأمرُ مجرد بذلٍ وكفى ، لأن البذل لا يعطي نتائجه إلا بشروطه الفنية .

إن هذا النظر ، يساعد على إمكان أنْ يبذل الشـاب المسلم مـالـه ونفسـه ، بينمـا لا يتيسرُ لـه حبسُ نفسِـه ، على بـذل الجهـد المتـواصـل للدرس والفهم .

وهناك سبب آخر ، وهو أن بذلَ المـالِ وبـذل النفس ، يمكن أن يتم في لحظة حمـاسٍ وتوتر ، ولكنْ طلبُ العلم لا يتم في لحظـة حمـاس ، وإنمـا يتم في جهـد متواصل ، يحتـاج لنوع من الوعي كـوقـودٍ ، يجعـل الاستمرارَ ممكناً .

نعم : كثير من الشباب ، في لحظةٍ من لحظاتِ الحماس ، يبدؤون أعمالاً ودراساتٍ في مواضيعَ مختلفة ، ولكن بعـد جلسـة ، أو جلستين ،

أو أكثر من ذلك ، يفترُ الحماسُ ، وينزل الملل ، ثم ينقطع ما بدأ من عمل ، كما ينطفئ المصباح حين يفقد وَقُوْدَهُ .

فلا بدّ من درس هذه النظرات المعوّقة ، وكشفِ عوامل الغفلة عن الدراسة ، أو الانقطاع عنها بعد البدء ، لأن ذلك يحدث ضمن شروط معينة دقيقة ، تخفى عن النظرات العجلى .

وكذلك من الأمور الخفية الجلية معاً ، على شباب العالم الإسلامي ، خفاءُ ما يجعل مثلَ إنتاج ، المودودي ، وسيد قطب ، وإقبال ، وغيرهم من الكتّاب ، الذين يوصي المربّون بدراسة إنتاجهم الفكري - والتي على أساسها يُعرَض الإسلام مجدداً - يحظى بالتقدير .

إن ما جعل هذا الإنتاج ، ينال هذه الحظْوة والتقدير ، هو أن وراء هذا الإنتاج ، نوعاً من الدراسة والاطِّلاع ، الذي تجاوز المصادر التي تعوَّد عليها الموجهون التقليديون ، مع ما يصحب هذه الدراسة من السير في الأرض ، ورؤية هذا العالم المعاصر الذي نعيش فيه ونتأثر به . وليس الذي جعل إنتاج هؤلاء في هذا المقام ، لأنهم كتبوا حاشية ، أو تقريراً ، أو متناً للفقه التقليدي ، وإنما لأنهم طرقوا شيئاً جديداً ، ليس في الأسلوب فقط ، بل بما يمسّ الواقع المتجدد ، بل ولأنهم رأوا من آيات الآفاق والأنفس ما شهد لآيات الكتاب ، مما لم يتيسر لغيرهم .

ولكنَّ المشكلة ؛ أن لا نرى بدقة ، السبب الذي جعل في كتاباتهم إبداعاً جديداً ، وهو ، هذا الاطّلاع والدرس الذي حصَّلوه . ونحن ، إذا كنا نريد أن نمي هذا الاتجاه ، علينا أن نعرف ، من أين جاءهم ماامتازوا به ، لاأن نقف عند إنتاجهم .

وقد لا يُلاحَظ من كتاباتهم ، ما يعطي لهم هذه السمة التي يمتازون بها ، وقد يكون من أسباب خفاء ذلك ـ مع تفاوت درجة الخفاء ـ طمأنة القارئ بالأصالة . إلاَّ أنَّ الحق بذاته ، أينما كان ، له أصالته الخاصة التي تعلو كل أصالة .

وكذلك من المفارقات ، أن نتطلع بشوق إلى تغيير الواقع ، دون أن يخطِرَ في بالنا ، أن ذلك لن يتم ، إلا إذا حدث التغيير قبل ذلك ، بما بالأنفس . ونحن مطمئنون إلى ما بأنفسنا ، ولا نشعر أن كثيراً مما فيها ، هو الذي يعطي حقَّ البقاء لهذا الواقع الذي نريدُ أن يزول ، ونحن نشعرُ بثقلِ وطأتِهِ علينا ، ولكن لا نشعرُ بمقدارِ ما يسهم ، ما في أنفسنا ، لدوامِهِ واستمرارِهِ .

فهنا ما يريد القرآن أن يعلّمهُ للبشر ، في تفسير ما يَحُلُّ بهم ، حين يلحُّ في إظهار أن مردَّ المشكلة إلى ما بالنفس ، وليس من الظلم الذي يحيق بالإنسان من الخارج ، بل من الظلم الذي يُنْزِله الإنسان

بنفسه ، وهذا هو لبُّ التاريخ ، وسُنَّة الاجتماع ، التي يقررها القرآن ، وبإغفالها تُظلِم الحياة ، وتنشأ الفلسفات المتشائمة الخانعة ، أو الفلسفات المتسلطة المارقة .

ومن أكبر الظلم الذي ينزلُه الإنسانُ بنفسه ، أنْ لا يرى العلاقة التسخيرية ، الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع (الآفاق والأنفس) ، فيهمل نفسه ، ولا يضعها في المكان الذي يُسَخِّرُ الآفاقَ والأنفُسَ على أساس السُّنن المودعة فيها ، وبناءً على هذا يمكن أن نقول :

إن العقل يمكن أن يتخذ أحد موقفين إزاء المشاكل ؛ إما أن يفرض فيها أنها تخضع لقوانين ، وبالتالي يمكن أن تخضع المشكلة للسيطرة عليها وتسخيرها ، وإما أن يفرض فيها أنها لا تخضع لقوانين ، أو لا يمكن كشف قوانينها . وبين هذين الموقفين ، مواقف متعددة ، يتفاوت فيها القرب من أحدهما والبعد من الآخر .

إن لكلٍّ من الفرضيتين نتائج عملية ، تظهر في مواقف البشر وسلوكهم ، بصور متفاوتة ، على حسب الخضوع لأحد الموقفين .

وعَجْزُ المسلمين أن يعيشوا وفقاً للعقيدة الإسلامية ، مشكلة لا يحتاج إثباتها إلى بذل جهد كبير .

ولكن بعد التسليم بأنها مشكلة ، يبقى أن يظهر : أي الموقفين يتخذ المسلمون إزاءها ؟ هل يتخذون الموقف الأول ؟ بأن يفرضوا وجود قوانين تخضع لها المشكلة ، وبكشفها يمكن السيطرةُ عليها وتسخيرها ؟ أو يعتقدون أن المشكلة لا تخضع لقوانين يمكن أن يكشفها الإنسان ، وبالتالي لا جدوى من جهد الإنسان للبحث عن هذه القوانين ، لأن القوانين التي تخضع لها المشكلة ، حسب اعتقاد البعض ، « تعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة ، غامضة الأسباب » .

إنَّ طرح هذا الموضوع بصيغة تجعَله تحت وعي المسلم ، يفيده لأن يحدد عن وعي موقفه من المشكلة ، ويخرج من الموقف الغامض الذي يتخذه . وفي أحيان كثيرة ، يختلط الموقفان بصورة مشوشة في ذهنه ، بحيث يشلُّ أحدهما مفعول الآخر ، فيبقى الموضوع في غموض وشلل .

إن لسلامة النظرية ، أثراً هاماً في الوصول إلى الحل ، بل يتوقف الحل ، على صحتها ومقدار وضوحها .

وهدفي من هذا البحث ، هو محاولة إلقاء أضواءٍ على الموضوع ، نعتقد أن تكون لصالح الموقف الأول . مع إدراكنا ضآلة ما نسهم به .

إنَّ المسلم حين يسأل ـ ويلح في سؤال لا يمل من طرحه ، كأنه

اللازمة التي يرددها في مطلع وخاتمة كل بحث وحديث ـ عن المشكلة : ماذا علينا أن نعمل ؟

إنه حين يسأل هذا السؤال ، يحمل معه ضِمناً ، موقفاً غامضاً عن موقفي العقل إزاء المشاكل . فهو لم يحدد بعد بوضوح ، عقيدته الموقفية . هل يعتقد أنَّ المشكلة لها سنن ؟ وهل يمكن كشفها ؟ وهل يمكن على أساسها السيطرةُ على المشكلة وتسخيرها بجهد الإنسان ؟

إننا لا نتحدث عن الذين يجيبون سلباً عن هذه الأسئلة ، مع اعترافنا بوجودهم ، وأنهم يمثلون مركز الثقل في المشكلة ، وهم عامة الأمة ، الذين ينتظرون المهدي أو أشراط الساعة ، وقد رَسَخَ في أذهانهم أنَّ المشكلة ليس لها من دون الله كاشفة ، وأنَّ سعي العالمين ضلال .

ليس حديثُنا عن هؤلاء ، وإنما عن الذين خرجوا من هذه الحال ، ولم يُثبِتوا أقدامهم بعد ، ولا يجيبون عن تلك الأسئلة بالسلب ، مهما تفاوت ما يحمل الجواب من معنى الإيجابية .

إن الذين لا يرون أن للمشكلة قوانين ، أو يفرضون لها تفاسير خاطئة ، لا يمكن أن يصلوا إلى نتائج . فعدم اعترافهم بالقانون لا ينفي القانون ؛ وإنما يمنعهم من السيطرة عليه وتسخيره ، ويجعل منهم أداة

يلعب بها الآخرون الذين علموا القوانين الصحيحة .

إن القدرة التسخيرية التي يمنحها امتلاك ناصية القانون ، تتبين بمقارنة المشكلة في مجالين :

المجال الأول :

مجال القوانين التي يخضع لها الكائن الحي ، والموقف الذي يتخذه من يعرف هذه القوانين ويسيطر عليها ، إزاء مشكلة اختلال توازن الكائن الحي . إنَّ الطبّ ، بما وصل إليه في كشف قوانين الصحَّةِ والمرضِ العضوي للكائن الحي ، مكَّن الطبيبَ من السيطرة بواسطة هذه القوانين وتسخيرها ، فالذي يعلم هذه القوانين يمكِّنه ، باستخدام وسائل مختلفة ، من مقاييس الضغط ، والحرارة ، والنبض ، والتنفس ، ومختلف التحاليل ، التي يكشف بها مقدار الخلل الذي حدث في الجسم من النقص أو الزيادة في النِّسَبِ التي تحفظ توازن الكائن الحي ، هذا التناسب الذي يجعله سليماً معافى . إن من يعرف ذلك ، يمكن أن يتخذ إزاء هذا المرض إجراءاتٍ فورية ، في الدواء والغذاء والعمل ، وأخرى مرحلية لإعادة التوازن إليه . إنَّ الذي يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل هو مَنْ يعرف القوانين التي تخضع لها سلامة الكائن الحي . بينما إنسان آخر لا يعرف هذه القوانين ، ولا كيفية

التدخل لإعادة التوازن ، فهو ينظر إلى المريض ويرى آثار المرض ، من الآلام والعجز عن الحركة ، وعن القيام بمهات الحياة اليومية ، بينما يرى هذه الآثار واضحة مؤلمة ، لا يستطيع أن يتدخل فيها ، ولا يمكنه أن يدرك مقدار الخطورة ، ولا الوسائل القريبة أو البعيدة التي ستنقذ هذا المريض أو تحطمه ، إنما يملك فقط ، أن يذرف الدمع بغزارة على آلام من يحبّ ... وهنا واضح في واقع الحياة .

المجال الثاني :

فإذا انتقلنا من هذا المجال ، الذي ربما كان إدراكه أقرب منالاً ، إلى المجال الثاني الذي يتصل بالمشكلة التي نبحثها ، مشكلة المجتمع الذي تبدو عليه آثارُ المرض الاجتماعي ؛ من الانحلال ، والتنازع والتدابر ، والعجز عن القيام بالواجبات الاجتماعية المشتركة ، ظهر لنا أن الجسم الاجتماعي ، أو كِيان الأمة ، يخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها لصالح المجتمع . وقد قلنا سابقاً ، إن مشكلة عجز المجتمع عن أن يعيش وفقاً لعقيدته لا تحتاج لإثبات . وعلامةُ المرض الاجتماعي ظاهرة عليه يراها كل فرد ، كما يَرَى آثارَ المرضِ الجسمي على المريض ، ولكنْ لا يعرف القوانين التي يخضع لها المرض في كِلا المستويين إلاّ الأخصائيون .

لهذا نرى غالب الناس ، يشكون من انحلال قوى المجتمع ، وعجزه عن القيام بمهمته ، كما يمكن أن يَرَى كلٌّ فرد علائم تدهور الصحة في لون البشرة ، وامتعاضات الألم . والناس وإن كانوا يسعون عند الإصابة بالأمراض العضوية إلى الأطباء ، إلاَّ أنهم لا يجدون بالمقابل أطباء أمراض المجتمع ، الذين يمكن اللجوء إليهم للقيام بالمعالجة ، على أنهم إن وَجَدُوا ، فقدرتهم على المعالجة ، كقدرة أطباء المرض الجسمي قبل كشف قوانين الأمراض ، الذين إن لجأ إليهم المريض فلن يجد فائدة عندهم .

إن هذه المشكلة ، هي الداء الذي أعيا الطبيبَ المداوي ، لا لأن الداء غير قابل للشفاء ، وإنما المداوي هو الذي أعياه أن يعلم القوانين التي تسيطر على سلامة المجتمع ... ومن ثم ينسبون المرض إلى القضاء والقدر ، كشأنهم في كل الأمور التي لا يعرفون سننها . بينما لا فرق في خضوع كل المشاكل للقضاء والقدر ، سواء عُرِفَتْ أسبابها أم لم تُعْرَف .

إنَّ هذا الخَلْطَ في هذه الأمور ، هو الذي جعل قول المعري كالمثل السائر :

كم عالمٍ عالمٍ تلقاه مفتقراً ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقاً
هذا الذي ترك الأفهامَ حائرة ... وصيَّر العالِمَ النحرير زنديقاً

ولا شك ، أن تركيب المجتمع ، وغنى فئة فيه وافتقار أخرى ، أمور خاضعة لقوانين وسُنن اجتماعية ، إذا خَفيت عن عيني الإنسان اشتبهت عليه الأمور ، وتداخلت في ذهنه المشكلات ، وظنَّ أن القضية فوضى لا ضابط لها ، ولا عدل فيها ، ولا تصدر عن حكيم عليم ، فيكون ذلك سبباً لهرطقة وزندقة من نَظُنُّهُ عالماً نحريراً .

إنَّ الذي عَرَفَ قوانين المجتمع ، يمكن أن يستخدم وسائل مختلفة لقياس صلابة المجتمع ، وسلامة شبكة علاقاته ، كما يمكن أن يستعين بمختلف التحاليل التي يجريها على الأحكام التي يصدرها المجتمع على تفسير الأحداث ، ليحدد نوع الخلل الذي يعانيه المجتمع . إنَّ الخبير بسنن المجتمعات ، يمكن أن يدرك ، ويتخذ إجراءات في تغيير نظرات المجتمع ، ويفرض نظام الحمية ، على الأغذية الفكرية التي يتناولها ، لما تحمل هذه الأغذية من جراثيم فكرية تعطِّلُ قوى المجتمع وتماسكه . وكما يمكن استخدام الحجر الصحي لإيقاف الأوبئة في مستوى المرض الصحي ، يمكن استخدامه في مستوى المرض الاجتماعي . كما يمكن إعطاء اللقاحات والمناعات الفكرية ضد أفكار مرضية .

فإنَّ ما يُرَى ، من تَدَابُرِ المجتمع ، وعجْزِهِ عن التعاون في أصعب الظروف ، واتِّهام أفرادِهِ بعضهم بعضاً بأنواع التهم ، وبحث الكبار فيه عمن يحمل عنهم وزر فشلهم ، وعدم شعورهم بوخز الضمير حين

يتخلفون عن أداء الواجب .. والكسل الذي يعمُّ الجميع عن السعي لزيادة المعرفة ، والإعراض عن الاستفادة من أحداث التاريخ ؛ كل هذه أمراض اجتماعية ، لا تقلُّ خطورة عن الأمراض العضوية ، التي تصيب أجسام البشر . إن هذه الأمراض الاجتماعية ، تصيب عقول الناس فتعطلها ، وعواطفهم فتبلّدها . ومصدر تلك الأخطار ، البيئة الملوثة بالأمراض الفكرية المتوطنة ، القديمة منها والطارئة .

إن القرآن الكريم ، يذكر المرض في القلب في عدة مواضع ، ولكن لا يذكره على أساس أنه مرض عضوي في جسم الفرد ، وإنما على أساس أنه مرض اجتماعي في نفس المجتمع . وحين يذكر مرض القلب ، لا يعني به ما يمكن أن يصاب به من روماتيزم ، أو تسارع ، أو انسداد الشريان الذي يغذي القلب ، مما يحدث الموت المفاجئ بالسكتة القلبية ، وإنما يقصد القرآن بمرض القلب : مرضاً (فكرياً) يصيب الإنسان في علاقته بالمثل الأعلى ، مما يجعل الشخص عاجزاً عن القيام بأداء وظيفته الاجتماعية في جسم الأمة .

إن ضعف القلب ، يجعل الجسم عاجزاً عن مواجهة أي عمل يتطلّب جهداً ، كذلك الضعف الذي يصيب مراكز الفكر في المجتمع ، يجعله لا يقوى على مواجهة أية مشكلة تتطلب بسطة في العلم والجسم .

والآن : إن معنى القـانـون والتسخير ، الـذي يمكن إدراكـه في مستوى سلامة الجسد ، يجب أن ينتقِلَ إلى مستوى سلامة المجتمع .

ويقول الكاتب الجـزائري مـالـك بن نبي ، في هـذا المـوضـوع في مستوى الآلة المادية : « فقد تعودنا بالنسبـة إلى الآلـة على الواقع القـائم في أن عملها لا يمكنـه أن يتحقق إذا نقصتها (حزقـة) أو صـامـولـة . ولكننا لم نُقرّ في أذهاننا القـاعـدة نفسهـا بـالنسبـة إلى العمل البشري ، بينما يبدو جيداً في حالات معينة ، أن الإنسان تنقصه هـذه الصـامولـة (الحزقة) بالذات حيثما فَقَدَ نشاطُه ، تمكُّنَه من الأشياء ، فكان نشاطـاً رخْـواً ، أو هـو لا ينـدمـج بطـريقـة منتظمـة مـع النشـاط المشترك للجماهير »[1] .

هذا تشبيه ، يسوقـه الأستـاذ مـالـك ليوضح فيـه ، أن النشـاط البشري يخضـع للسنن ، وإن اختلفت هـذه السنن عن سنن الآلـة المادية . وهو تشبيه آخر يعضد تشبيهنا المجتمع بـالكائن الحي من حيثُ سننُ مرضِـه ، وسننُ شفـائِـه . وأحب الآن أن أذكر أحـاديث الرسـول ﷺ في هـذا المـوضـوع لنبين أن هـذا التشبيـه ليس من بِـدَعِ العصر الحاضر .

---

(١) القضايا الكبرى ، ص ٩٤ ، دار الفكر دمشق ط١ ، ١٩٩١ م .

بأبي هو وأمي ﷺ ، ما كان أحرصه على المسلمين وأرأفه بهم ، حين كان يبدئ ويعيد ليُقِرَّ في الأذهان ، التشابه بين المادة والحياة والمجتمع ، من حيثُ خضوعُ كلٍّ منها للسنن : السنن التي تفسر تماسك الجسم الصلب ، والسنن التي تبقي الكائن الحي في الوضع السليم ، والسنن التي تحمي المجتمع من الانحلال . فيذكر عليه الصلاة والسلام المثل المادي ، ويقرن به المثل الاجتماعي ثم يذكر المثل العضوي فيشبه به العلاقة الاجتماعية .

يقول ﷺ في التشبيه الأول : « إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً . ثم شبك بين أصابعه » .

ويقول في التشبيه الثاني : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى »[1] .

إن معرفة السنن التي تشد البنيان بعضه إلى بعض ، هي التي تمكن من بناءٍ يبقى على مرِّ الزمن . إن مهندس البناء هو الذي يعرف ما يحتاج بناءُ الجسورِ والأنفاقِ والأبراج ... إذ لا يمكن أن يقوم بناءٌ ، بناهُ من يجهل سننَ تماسكِ البنيان ، وقوانينَ الضغط ، والمقاومة . فكما

---

(١) الحديثان في البخاري .

يمكن لمهندس البناء أن يعرف خطورة نوع التداعي الذي أصاب البناء ، ويمكن أن يعرف أسبابه وما ينبغي أن يقوم به من إصلاح ، كذلك مهندس بناء المجتمع ، إذا نظر إلى المجتمع فإنه يعرف ما يتمتع به المجتمع من تماسك ، وما يطرأ عليه من خلل ، وما يتعرض له إذا استمر إهماله من خطر السقوط في أجل محدود :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إذا جَاءَ أَجَلُهُم فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٩] .

هذه المقارنة إنما تهدف لتقريب الموضوع ، وهذه طريقة القرآن الكريم والحديث ، فإنهما يذكران المثل المعروف عند الناس ليقارنا لهم أن ما جهلوه شبيه بما عرفوا سننه من حيث الخضوعُ للسنن :

﴿ وَتِلْكَ الأمثَالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ ومَا يَعْقِلُها إلاَّ العَالِمونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

والرسول عليه الصلاة والسلام ، يضرب مثلاً آخر تمتزج فيه السُّنَّة المادية بالسنَّة الاجتماعية ، في مَثَلِ السفينة وركّابها ، وعلاقة سنن المركب بسنن المادة تارة ، وبسنن البشر تارة أخرى . هذا المثل يذكره الرسول ﷺ ليبين أن للمجتمع قانوناً يترابط به ليحميه من الغرق .

من السهل إدراك نتائج الخرق الذي يحدث للسفينة ، ولكن

ليس بمثل هذه السهولة إمكان إدراك نوع الخرق الذي يحدث للمجتمع . إن هذا علم ، وأي علم ! وبمقدار ماهو علم ، إنه ظن ، وأي ظن عندنا نحن الآن ، كما يقول إقبال :

كلٌّ شيءٍ فيه قانون سَرَى   كيفَ في هذي المعاني يُمْتَرى

ولئن ذهب وقت المعجزات ، إلا أن العلم قد تقدم لخدمة الإنسان ، ولو علمنا نحن المسلمين كيف نستفيد من العلم في خدمة إيماننا لأدركنا أن نتائج استخدام العلم أجدى من وصفنا الإسلامَ أنه دين العلم ، لاسيما أننا بعد ذلك لانثق بالعلم بل نخاف منه ، بل نتهمه .

ولو عرفنا التعامل مع العلم لوجدنا أنه يدعم ما نهدف إليه بأسلوب أرقى ، ونتائج أنفع من الحرص الطفولي لرفع شأن الإسلام . إن الغيورين يبكون على الإسلام الذي أخذ أهله ينحسرون عنه ، كما يبكي المحب الجاهل على المريض الذي اشتدت عليه وطأة المرض ، بينما كان نفعُه لهذا المريض أجدى لوسعى ليعلم طريقة علاج المرض ، ذلك أن الله ماأنزل داء إلا وأنزل له دواءً ، وما يقال في مجال أمراض الجسم يقال في مرض النفس ومرض المجتمع .

علينا أن نتعلم ماالعلم ؟ حتى نميز ماهو علم مما ليس بعلم بدلاً من

أن نقول إن العلم لا يوثق به . ولكن الطريق التي تُوصلنا إلى ما نميز بـه العلم عن غير العلم أصعب مسلكاً . وقولنا عن العلم إنه لا يوثق بـه أسهل كلفة ولا يحوجنا إلى عناء ، ولكن نتيجة هـذا السهل صعبـة ، ونتيجـة ذلك الصعب أقوم سبيلاً .

إن اعتنـاق المـوقف الأول من المشـاكل يعطي نتـائج معينـة ، ويتدخل في سلوك الإنسان . إن من يعلم أن المشاكل خاضعـة للسنن ، ويمكن كشفها ، يتسم سلوكه بالإيجابية والإقبال على العمل بجد ، بينما يظـل الآخر الـذي أنكر أو جهـل السنن في حَيرة ، وإذا بـدأ بعمـل ، يمكن أن يتركـه في منتصف الطريـق ، ويمكن أن يصرفـه عنـه أي صارف تافه ، ويسهل عليه ذلك ، لأنـه لا يشعر أنـه ترك أمراً يتوقف حلُّ المشكلـة عليـه ، فهو لم يتعود حـلَّ المشـاكل ، وإنما يراهـا معلقـة ومُزْمِنة . وكلما تعود الإنسان التعامل مع السنن ، ازداد ثقة وطمأنينة .

والإنسـان الـذي يواجـه مشكلـة ، ويعتقـد بـإمكان حلِّهـا ، هو إنسان يؤمن بالتغيير . والتغيير هو انتقال من حـالـة لا يرضى عنهـا إلى أخرى خيرٍ منهـا ، وهـذا الانتقـال ، يخضع لقـانون يتخـذ عـلاقـة بين الهدف والوسيلة ، وطاقة الإنسان ، وبين هذه الأركان توازن . ويجـدر بنا أن نطبق هذه القاعدة على المجتمع الإسلامي ، متذكرين ، أن هدف

الإنسان في هذا المجتمع استئناف حياة إسلامية ، ووسيلته كل ما يمكن أن يصل إليه فكره ويده .

إن العلاقة بين هذه الأركان تخضع لاعتبارات متعددة تقربها من الواقع أو تبعدها عنه . فلا بد من كشف هذه الاعتبارات ، وجميع أعمال البشر تخضع لهذا القانون ، من أدنى ما يسعى إليه الفرد في نشاطه اليومي ، إلى مستوى إقامة المجتمع الصالح الموحَّدِ في العالم كله .

ومن الاعتبارات التي تفسد العلاقة ، ظن أن النجاح فيه يخضع لقوانين « تعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب » كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه (هذا الدِّين) . إن مثل هذه النظرة تفسد العلاقة بين الأركان المذكورة آنفاً . هذا اعتبار معوق يتعلق بنظرة الإنسان إلى نفسه نظرة سلبية ، وكذلك فيما يتعلق بالوسيلة التي تمكنه من الانتقال من الموجود إلى المقصود ، فإن المسلم يقع في متاهة حين يريد الانتقال ، فلا يبصر تعلق الموجود بالمقصود ، ولا يرى أن الموجود هو الذي يوصل إلى المقصود ، فهو يحقِرُ الوسيلةَ الموجودة ويضع من قيمتها ، وأما الوسيلة التي يتوق إليها ، ويرى لها الفائدة والجدوى فإنه لا يتمكن منها[1] ،

---

(١) يقول الأستاذ مالك في حديثه عن السياسة والبوليتيكا :

« والفرق كبير بين المصطلَحَيْن ، إذ هو الفرق بين المصادفة والعاطفة ، وبين :

فالموجود غير مفيد في نظره ، والمفيد غير متوفر لـديـه . إذن لا فـائـدة من العمـل فيا لا يفيــد أو فيا هـو غير متيسر . ولـذا فهـو في إجـازة مفتوحة حتى تتدخل القوى الخارقـة الغـامضـة الأسبـاب . بينما العقل المتبصر لم يعد يرى غموضـاً في الأسبـاب حتى في مستوى إنزال الملائكـة للتأييد والنصر ، إنه يخضع لقـانون وسبب واضح وهو اتخـاذ الرَّب إلهـاً والاستقامة منهجاً :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ... ﴾ [فصّلت : ٤١/٣٠] .

إن النظرات الخاطئـة التي تعرقل الحركـة ، وتوقف السير ليست كبيرة ضخمة ، ولكنها دقيقـة لا يقِفُ الفكرُ عنـدهـا ، بل يتجـاوزهـا قفزاً دون أن يلمَحَها . ولكن هذه الغفلـة اليسيرة توقف سيرَ التـاريخ ، كما يقول محمد إقبال :

لحظــةٌ يــا صــاحبي إنْ تَغْفُــلِ ألفَ ميــلٍ زاد بُعْـــــدُ المنزلِ

= التوجه المحدد المستقى من التجارب الإنسانية خلال التـاريخ . ومـا هـذه السيـاسة الخبيثـة (البوليتيكا) التي اتبعهـا الزعمـاء سوى خلـط الممكن بـالمستحيـل ، وترك الأهـداف التي تسهل إصـابتهـا بوسـائل مبـاشرة ، إلى مـا لا يمكن الوصول إليـه مهما تعلقنا بوسائل خياليـة » . من كتـاب وجهـة العـالم الإسلامي ، دار الفكر دمشق ، ط ٥ ، ١٩٨٦ ، ص ١٠٠

فالإنسان يتجاوز الخطأ الدقيق في حركته المهتاجة الشغوفة إلى الهدف ، ولكن الصدمة تكون محيِّرةً إلى درجة كبيرة ، مما تجعل الصفوة تقابل مثل هذا الموقف بقولهم : ﴿ أنَّى هـذا ﴾ [آل عمران : ١٦٥/٣] .

فكما لم يلاحظ الإنسانُ الشروطَ الدقيقة الواضحةَ والخفيةَ بآن واحد ، أثناء هجمته ، فكذلك يعجز أن يلاحظها في مأساة تحطمه بعد أن يُخفق ، فلا يظن أن ذلك الذي لم يلمحه هو سبب هذا التحطم الشديد ، أو البعد الكبير عن الهدف .

إن السلوك الذي ينتج عن مثلِ هذه الخبرات ، حين يفقد مراعاة السنن ؛ سلوك يتسم بالْحَذَر والْحَيْرَة ، وعدم الثقة ، والعجز مع الحقد . بينما إدراك سنن الانتقال من الموجود إلى المقصود بصورة محددة ، يقي الإنسان من هذه المضاعفات ، فلا يجعله يظن بنفسه مالم يؤهلْها له ، ولا يحاول أن يستر عجزه ، وإنما يسعى بكل جد إلى استكمال ما ينقصه .

واليوم حين أعرض هذا البحث في مشكلة التغيير من خلال قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرَّعد : ١١/١٣] .

أكتب وأنا معتقد أن إدراك المسلم لهذه القضايا ، يجعله يقبل على ما بين يديه من وسيلة موجودة بكل صبر وجد واستمرار ، دون أن يتمكن أحدٌ أن يصرفه عن غايته ، لأنه يعرف ماذا يعمل ، وأين يؤدي عمله . وكلما اكتسب من سعيه موجوداً جديداً لم يكن عنده ، زادت طمأنينته ، وخرج من الْحَيْرَةِ التي يعيش فيها ؛ حيث كان ينتقل من سراب إلى سراب ، ويقضي شبابه في هذه الحركة ، التي تشبه حركة من أصابته لوثة ، ثم يركد ساكناً بعد أن يئس دون أن يكون قد خطر في باله أن الدراسة الصابرة تفتح أبواباً للعمل لا ينتبه إليها عادة . ويقول الأستاذ مالك بن نبي في هذا :

« وبعض المسلمين الذين ما زالوا يحسون بقلوبهم بالمأساة ، ولكن ليس لديهم ما يكفي من الصبر والأناة لدراستها ، هؤلاء يترجمون دائماً عن المأساة قائلين : (إننا لم نعد مسلمين إلا بشهادة الميلاد) . إنهم ليقررون حقيقة ، ولكن ربما فعلوا شيئاً أكثر فائدة لوأنهم لاحظوا ملاحظات أولية في وسطنا »[1] .

أنا أعتقد أنه إذا أدرك المسلم سنن المشاكل سيخرج من هذا الإدراك بالسلوك الجاد بدل التشتت الذي يعيشه .

---

(١) ميلاد مجتمع ، ص ١٠٤ ، دار الفكر ، دمشق ط٣ ، ١٩٨٦ م .

سنن التغيير
ومفهومها في القرآن

سُنَّةٌ عَامّةٌ للبَشرِ

إن السّنة الموجودة في الآية ، سنة عـامـة تنطبق على كل البشر ، وليست خاصة بالمسلمين ولا بغيرهم وإنما هي عامة .

ولكن المسلم عادةً ، بشعور منه أو بلا شعور ، وبمقدار متفـاوتٍ في الوضوح ، يريد أن ينظر إلى الأمور بشيء من الخصوصية .

ولقد صادفني مراراً حين كنت أحاول أن أتناول مشكلة المسلمين أن أواجَهَ بقولهم : إن هذا الأسلوب الذي تحاول أن تبحث بـه الموضوع ينطبق على غير المسلمين أيضاً . فأقول : نعم .

وبنـاء على هـذه الخبرة ، أشعر بحـاجـة لأن أوضح هنـا ، أن القـاعـدة الموجودة في هـذه الآيـة تشمل كل النـاس ، بـدليـل أن كلمـة ﴿ قوم ﴾ في الآية لم تأت مخصصة بقوم معينين ، وإنمـا هي لكل قوم ، ومجيئها نكرة في الآية يدلُّ على هذا .

فمضمون هـذه الآيـة ينطبـق على كل البشر أجنـاسـاً وأديـانـاً : الأبيضِ والأسودِ ، والمسلمِ والكافر .

لكن حين يسأل المسلم ويقول : هل هذا الأسلوب في معالجة المشكلة يعمُّ غير المسلمين ؟

إن هذا السؤال ليس سؤالاً فارغاً ، بل يحمل وراءه نظراً وعقيدة وفكرة ، فكأن المسلم بهذا السؤال يبصر جانباً لم يكن يبصره من قبل ، ويبرز عنده احتمالٌ لم يكن وارداً لديه سابقاً ، فيخرج بهذا من نظر الخصوصية إلى قاعدة عامة تشمل كل البشر ، ومن ضمنهم المسلمون .

ولكن المسلم لا ينظر عادة ، إلى مشكلة المسلمين بهذا المنظار الذي يجعل المشكلة الإسلامية خاضعة لسننٍ عامة تشمل البشر جميعاً . فهو يرى أنه ينبغي أن تكون مشكلة المسلمين غير خاضعة لما يخضع له سائرُ البشر في مشكلاتهم ، ويفعل المسلم هنا حين يفعل ، بروح من التسامي والتقديس . ذلك أنه يظن أن رفع شأن المسلمين إنما يكون بعدم خضوعهم للسنن التي يخضع لها سائر البشر .

وينبغي أن يُوضَّحَ هذا الأمرُ بدقة ، وبصورة كافية ومقنعة ، ولا بد أن أتناوله ، وإن لم أبلغ به الدرجة التي أريدُ لها من الوضوح والبيان ، لأن وضوحَ هذا يكون له أثر في نظر المسلم وموقفه من المشكلة . إذ حين يرى المسلم المشكلة خاضعة لسنة عامة تنطبق على سائر البشر ، يدرك أنه يمكن أن يستفيد من الوقائع التاريخية البشرية التي حدثت للأقوام قديماً وحديثاً ، والتي لا تزال تحدث الآن .

والذي يؤكد عمومية الموضوع أن الله يقول للرسول ﷺ :

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٤٦/٩] .

ويصور الرسول ﷺ هذا الموضوع بصورة من يرى المستقبل من خلال السنن حين يقول : « لتتبعُن سنن مَنْ قبلكم حذو القذة بالقذة ... » حتى إنه يصل في المشابهة إلى أن يحشرهم في جُحْرِ الضَّبِّ .

ومثل هذا النظر إلى الموضوع ، هو الذي نفتقده الآن ، وعلينا أن نكتسبه ، لأن هذه النظرة القرآنية هي التي تجعل المسلم قادراً على الاعتبار الذي يلح عليه القرآن .

فأمامنا تجارب القرون الماضية ، تجارب كثيرة تظهر فيها سنن تغيير الأقوام ، التي يخضع لها المسلمون أيضاً ، كأي قوم من الأقوام .

وفي الواقع ، إن هذا النظر القرآني يجرد الإنسان من ملابساته ، ويرجعه إلى أصله المجرد الذي يخضع للسنن .

فإذا حصَّلنا هذا النظر نكون قد أخرجنا المشكلة من مجال الغموض والتَّكَهُّنَات ، إلى مجال الرؤيةِ الواضحة ، التي يُمكن النظرُ إليها كمشكلةٍ إنسانية ، لا على أنها مشكلة مبادئ ، بمعنى أن ننظر إلى الموضوع كمشكلة مجتمع ، لا كمشكلة دين وعقيدة . وبعبارة أخرى

كمشكلة بشرٍ مسلمين لا مشكلة إسلام . وهذا أيضاً في حاجة إلى شرح أيضاً .

فحين أقول : مشكلة مجتمع ، لامشكلة دين ، لاأريد أن أنزع المسلم من دينه وعقيدته ، بل حرصي عليه أن يبقى على دينه كحرصه بل أشد . ولكن ماأريده هنا : أن أفرق بين السنن التي تجعلِ الإنسان عاجزاً ، والسنن التي تجعل الإنسان مجتهداً عاملاً .

وليس قصدي أن أجعل العقيدة والإسلام موضع تشريح وبحث ، فإن الإسلام ليس مجالَ البحث في صدقه وحقيقته وصحته ؛ فالإسلام حقيقة من حقائق الكون ، كالشمس والقمر في مجال المادة . فإن الإسلام في مجال سير المجتمع البشري ، والأمة الواحدة العالمية ، كالشمس والقمر في مجال المادة .

فلندع الآن هذه الحقيقة ،/ولنرجع إلى الإنسان المسلم الذي ينطبق عليه ما ينطبق على البشر ، من غفلة وجهل ، وعنجهية وغرور ، وطيبة ووداعة ، وسذاجة وحماقة .. فالبشر قد أودعوا نفوسهم أفكاراً عن الشمس والقمر في قديم الزمان ، ولكن هذه الأفكار مهما كانت خاطئة لم تكن لتؤثر في حقيقة سير الشمس والقمر ، ولم يتغير شيء من نظام الكون من أجل تلك الأفكار ، وبقيت سنن سير

الشمس والقمر كما هي لم تتغير . ولم يكن الذي كان في حاجة إلى تغيير حينذاك ، سنَّة الشمس والقمر ، ولكن الذي كان في حاجة إلى المزيد من البحث والعناية ، هو الإنسان ، الذي حشى نفسه بالظنون والأوهام ، وارتفع بها إلى مستوى القداسة ، وكان عنده استعداد أن يزهق الأرواح التي تحمل أفكاراً تخالف ما يحمله هو .

فإذا رجعنا إلى الإنسان المسلم ، نجد أن نظرته ومفهومه عن الإسلام ، كمضمون ، وكطريقة لحلّ المشكلات ، كمثل نظر أولئك إلى الشمس والقمر ، من حيث البعد عن الحقيقة . فالمنهج القرآني مثلاً في بحثه لِمشكلات التقدم والتخلف المادي عند الناس ، يواجهها كمشكلة عامة ، وكمشكلة أقوام ، لا كمشكلة دين وعقيدة ، وإنما مشكلة صلة بدين .

وينبغي أن أنبّه هنا إلى أمرين .

الأول : حين نقول مشكلة عامة .

في الواقع إن المشكة عامة ، لأنَّ السُّنَّة لا تكون سنَّة إلاَّ إذا كانت عامَّة ، ولكن ليس معنى هنا ، أن مشكلة المسلمين لا تتميز بخصوصية ، من حيث العوارض ، والملابسات الخاصَّة ، التي ينبغي أن يراعيها المسلم حين يأخذ في معالجة المشكلة ، إلا أن قصدي هنا أن لا يختلط

على المسلم القاعدة العامّة التي يخضع لها كل الأقوام ، مع الأمر الخاص الذي يخصُّ المسلمين . فمثلاً قد يكون الانخداع بالوهم والتعلق به مما يحول بينهم وبين رؤية طريق الصواب وهذا سنّة عامّة في البشر . ولكن لا يشترط أن يكون الوهم الذي يتعلق به كل قوم ، نوعاً واحداً من الأوهام ، بل يمكن أن تكون أوهاماً متعددة ، ولكن سُنّة التعلُّق بالوهم واحدة ، وإن كان نوع الوهم مختلفاً . فعلينا أن نراعي هنا في بحث مشكلة المسلمين .

الثاني : حين نقول : إن المشكلة مشكلة إنسان ، لا مشكلة عقيدة ، كذلك في حاجة إلى تفصيل ، وذلك لأن شرعة القرآن ، وإن كانت حقاً ، إلا أن فهم المسلمين لهذه الشرعة ، وهذا المنهاج في جميع نواحيه ، ليست في أذهان المسلمين على أصالتها ووضوحها ، وأحياناً يكون فهمهم لها على عكس حقيقتها ، فمن هنا تظهر الحاجة إلى تغيير ما بأنفس المسلمين عن الإسلام ، في قليل أو كثير ، ولا سيما بعد هذا الركود الطويل ، الذي جعل كثيراً من الخرافات والنظرات الخاطئة تحمل قوة قداسة الإسلام والقرآن عند المسلمين .

وهذا الأمر ، يمكن أن يعتبر خصوصية في المسلمين ، من حيث تعلقهم بأوهام ولا صلة لها بالقرآن وكأنها القرآن . وتفصيل هذه الأوهام وكشف النقاب عنها ، يشكل عقبات في سبيل الإصلاح ، لأنها

تشكل أوزاراً تحمَّلوها وابتدعوها ما كتبها الله عليهم ، فظلت في أعناقهم كأحجار الرَّحى المدلاة التي تعوق حركتهم وتثقلهم ، وكالغشاوات على الأعين تحول دون رؤية الصواب ، بل صارت كالأقفال على القلوب ، التي تمنع إدراك الصواب ، وتجعل أمام إمكانية قبوله صعوبات مضاعفة .

وعلى الرغم من أن هذه الأوهام ، اكتسبت نفس قداسة وقوة آيات الله ، في أنفس المسلمين ، إلاَّ أن المسلم على علاَّته ، عنده من التعلُّق بالقرآن ما ليس لأحد من أهل الكتاب . فلهذا كانت صعوبة تخلص المسلمين من هذه الأوهام أصعب ، وفي حاجة إلى حذق ورفق ، في تغيير ما بنفسه عن دينه وعقيدته ، من الخطأ إلى الصَّواب .

وإن عجز المسلم عن هذا التغيير ، يرجع في كثير منه ، إلى غياب وضوح سنن تغيير ما بالنفس ، ولا سيما حين يحدث هذا التغيير خلال عصور طويلة ، وهنا تظهر أهمية معرفة سنن التغيير لما بالأنفس ، سواء كان هذا التغيير الذي حدث ببطء من قديم ، أو الذي يحدث الآن بسرعة كبيرة .

فهذه المعرفة الواضحة ، لما حدث من التغيير البطيء سابقاً ، وما يحدث من التغيير السريع لاحقاً ، أمر ضروري للسيطرة على التغيير الذي نريده نحن .

١ ـ فلا بد من معرفة سنن التغيير لما بالأنفس .

٢ ـ كما لا بد من معرفة مـا ينبغي أن نغيره ، من الأوهـام ، ومـا ينبغي أن نثبته من الحقائق .

٣ ـ ومعرفة ، مَنْ هؤلاء الذين ينبغي أن نجري على مـا بـأنفسهم هذا التغيير ، وإن اختلفت معادلتهم الشخصية وبيئتهم ، إذ أنهم مشتركون في أصل البلاء .

فهـذه المعرفـة المفصلـة أمر لا بـدّ منـه للبـدء في أيـة عمليـة تغيير جاد .

سُنَّةُ مُجْتَمَعٍ لا سُنَّةُ فَرْدٍ

كـذلـك إن الآيـة ، حين تبين هـذه السنَّة ، تبين أنهـا ، سنَّـة اجتماعية لا سنَّة فردية ، بمعنى أن كلمة ﴿ بقوم ﴾ تعني الجمع أو الجماعـة التي يطلق عليها أمَّـة ، أو مجتمع . ولعلنـا نبين معنى المجتمع إن شـاء الله في المستقبل .

ولا يفهم من الآية ، قَصْد فرد معين ، بدليل أن الله لم يقل : إن الله لا يغير مـا بـإنسـان حتى يغير مـا بنفسـه ، ولا مـا يـدل على شخص فرد ، سواء كان رجلاً أم امرأة ، مؤمناً كان أم كافراً . وإنما الحديث عن قوم ، عن مجتمع ، لـه خصـائصـه بمـا يشمل الرجـال والنسـاء ، الصغـار والكبار ، بكل محتويات القوم أو المجتمع المعين أو الأمة .

وينتج عن هذه الملاحظة ، أنه لا يشترط أن يغير الله ما بشخص إذا غيّر ما بنفسه . كما أنه لا يشترط أيضاً أنه لا يغير الله ما بـالشخص إن غيَّر ما بنفسـه ، لأن البحث ليس عن شخص معين ، وإنما البحث عن مجتمع بمعناه الخاص ، أي باعتباره كيـانـاً واحـداً وجسماً واحـداً . إذ أن الفرد ، يمكن أن يتغير مـا بـه في بعض الجـوانب ، إن غيّر مـا بنفسـه ، ولكن ذلـك ليس دائماً في كل الأمور ، فهنـاك أمور خـاصـة بـالمجتمع ،

لا بد من تغييرها ، حتى ينال الفرد نصيبه من هـذا التغيير . وعلى هـذا يكون مضمون الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ ، ما بمجتمع أو كيـان اجتماعي ، حتى يغيِّر هذا المجتمع ، أو الكيان الاجتماعي ، مـا بـأنفسهم . وبهذا نرجو أن نكون قد نبهنـا إلى هـذه الملاحظـة التي سنحتـاج إليهـا أثناء البحث ، لأنـه يترتب عليهـا أمور ، قـد يحـدث بـدونهـا اختلاط وعدم وضوح ، وتوقف في قبول النتائج التي نريد أن نصل إليها .

ولكي نقرب الموضوع إلى الأذهان نقول : إن الله تعالى يقول :

﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَـابِرُونَ يَغْلِبُـوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُم مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفـاً مِنَ الَّـذِيْنَ كَفَرُوا بـأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَفْقَهُـونَ ☆ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُم وَعَلِمَ أَنَّ فِيْكُم ضَعْفاً فإِنْ يَكُنْ مِنْكُم مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وإِنْ يَكُنْ مِنْكُم أَلْفٌ يَغْلِبُـوا أَلْفَيْنِ بِـإِذْنِ اللهِ واللهُ مَـعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٨/٦٥ ـ ٦٦] .

نفهم من هـذه الآيـة أن صبر عـدد قليـل كعشرة أمـام ألف لا يشترط إحراز النصر ، فكأن الآية تتحدث عن توازن في الكم والكيف ضمن حـدَّيْن . ويمكن الاختلاف على اعتبـار أن العـدد لا مفهـوم لـه . ولكن الذي لا يمكن الخلاف عليـه هو اعتبـار التوازن في الكم والكيف ، وزيادة الكم حين يضعف الكيف ، وهذا واضح في قوله تعالى :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُم وَعَلِمَ أنَّ فِيْكُم ضَعْفاً فَـإنْ يَكُنْ مِنْكُم مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ ﴾ ، بعد أن كانوا يغلبون ألفاً .

فمن هنا نفهم ، أن الغلب أو النصر الـذي يحرزه المجتمع ، أو الأمـة المخاطبة بقوله : ﴿ منكم ﴾ لا يتم بثبات فرد ، أو بـأن يكون مـا بنفس فرد قد تغيّر ، إذ لا بد من ثبات عدد معين ، له حـدّ أدنى وأعلى ، وإن كانت آية الأنفال هذه تحدد الكم ، وتدخل عـامل الكيف ، الـذي جـاء بحثـه في مـوضـوع خـاص ألا وهـو الثبـات في المعركـة . إلا أن هــذه الخصوصية ليست محصورة في المعركة القتالية ، فمعـارك الحيـاة كثيرة ، فمعركة بناء المجتمع كذلك تحتاج إلى التوازن نفسه .

ونَذْرُ الإنسانِ نفسَـه ، ومـا وهبـه الله من قوة وعمر في سبيل فهم مشكلات المسلمين ، يشمل كذلـك التوازن نفسـه ، سواء ذلـك في بنـاء الفرد والمجتمع .

ومعركـة التعـامل مـع سنن الله على أسـاس الـوعي ، أمر يشمـل الكافرين والمـؤمنين ، وإن الفقـه لسنن الله يعطي النتـائـج حتى للكافرين ، ولهذا لمّا قال تعالى :

﴿ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّـذِيْنَ كَفَرُوا ﴾ أعقبـه بقولـه : ﴿ بِـأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ فهذا يدل على تدخل فقه الكافرين أيضـاً ، كمّـاً وكيفـاً ،

ولا سيما الفقه لسنن الحياة الدنيا كما سنبحثه فيما يأتي ، لأن الله يمد المؤمنين والكافرين :

﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاء وَهؤلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء : ١٧/٢٠] .

وهذا النظر إلى الموضوع ، يبين خطورة أن يبقى في المجتمع أعداد ، مهما كانوا قلّة ، لا يتمتعون بالوعي التام لقضايا المجتمع . وكذلك ، خطورة عدم وجود العدد الكافي ، أو الحدّ الأدنى ، من الذين يعون الأمور على هذا الأساس من النظر . وإدراك ضرر وجود غير الواعين في الأمة ، يولد لدى المجتمع شعوراً بالخطر ، أن يكون المركب الذي يسير بالمجتمع ، يحتوي على نماذج لا تعرف سنن طفو الأجسام على الماء ، فيسعون بحسن نية ، أو سوء نية ، لخرق السفينة ، كما ورد في الحديث الشريف الصحيح .

علينا أن ندرك ؛ أن التوازن الدقيق في وعي المجتمع ، يتأثر كما يتأثر توازن المركب ، بحيث لو أن ذبابة وقعت على طرف المركب ، أثّرت في توازنه مهما كان التأثير ضئيلاً . كما أن الجسم الإنساني نفسه ، قائم على مثل هذا التوازن الدقيق في عوامل الصحة والمرض ، فالغدد في الجسم تفرز ـ حسب الحاجة ـ الإفرازات . إلا أن المجتمع لا يفرز

بالغريزة ، الوعي الذي ينبغي أن ينتشر فيه ، لأنه ينبغي أن يقوم وعي المجتمع ذاته ، بتنظيمه . وهذه مهمة عقل المجتمع ، الذي يعتبر كل فرد مسؤولاً . وتتعاظم المسؤولية على قدر ما يتوفر للمرء من فرص في تحصيل ذلك وتنفيذه .

هذا ونلاحظ أن مثال السفينة (المادة) فيزيائي ، بينما هو في الجسم بيولوجي يعتمد على الغريزة ، وفي المجتمع يعتمد على العقل .

وإدراك الموضوع بهذا المستوى ، يجعل المرء يشعر بقشعريرة حين يتذكر أنه سيسأل عن « عمره فيم أفناه » ، هذا العمر الذي يبعثره . وسيسأل عن الإمكانات الأخرى التي أهملها وضيّعها حين لم يسعَ إلى تحويل ما أودع الله في نفسه من إمكانات بالقوة إلى إمكانات بالفعل . ومثال الشيء الذي عند الإنسان بالقوة : الاستعداد الموجود عنده لتعلم القراءة والكتابة . ومثال الشيء الحاصل عنده بالفعل : هو تحول هذا الاستعداد إلى واقع عملي حين يصير هذا الإنسان قارئاً وكاتباً عن طريق الجهد الذي يبذله للتعلم . وكذلك سائر الاستعدادات الكامنة في الإنسان .

سنَّة دنيوية لا أُخروية

لا تتوجه الآية إلى المشكلة الأخروية والحساب الأخروي ، وإنما تتوجه إلى المحاسبة الدنيوية الاجتماعية .

ونحن ينبغي أن تكون لدينا القدرة على فهم هذا الموضوع على هذا الشكل . كما أن هذا ليس معناه أن نقلل من شأن الآخرة ، أو نهمل دخل الآخرة في الموضوع ، ولكن المقصود هو التنبيه إلى مجال السنن وحدودها . وأن مضمون هذه الآية في محاسبة الناس ، أو محاسبة المجتمع ، وتغيير ما بالمجتمع على أساس العمل الجماعي وفي الدنيا أيضاً . وأن التغيير المراد في الآية ، هو التغيير الذي يحدث في الدنيا .

وهذه الملاحظة ، تفيد أيضاً في تحديد الموضوع وتوضيحه ، وتسهم في إمكان فهم أعمق لآلية تغيير المجتمع . تبين أن المحاسبة في الدنيا جماعية ، ومحاسبة الآخرة فردية . أما كون المسؤولية في الآخرة فردية فالآيات التي تدل عليها كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ ونَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرداً ﴾ [مريم : ٨١/١٩] .
وقوله تعالى : ﴿ ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ☆ وأنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إلاَّ مَاسَعَى ☆ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ [النَّجم : ٣٨/٥٣ ـ ٤٠] .

وأما المسؤولية الاجتماعية ، أي مؤاخذة المجتمع كله ، فكذلك واضح في قوله تعالى :

﴿ واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا مِنْكُم خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيْدُ العِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٨/٢٥] .

فحين تنزل المصيبة على المجتمع المقصر فإنها تعمّ أفراداً لم يكونوا مقصرين ، وبالمقابل قد يسعد أفراد مقصرون في المجتمع السليم .

ويدل على هذا أيضاً حديث الرسول ﷺ لَمَّا سُئل : « أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث » ، وهذا واضح في أن محاسبة المجتمع في الدنيا جماعية ، كما أن المصيبة تعمّ الجميع وكذلك النعمة .

وينبغي أن يفهم ذلك في حدود المجتمع .

في الآية تغييران

تغيير الله وتغيير القوم

وينبغي أن لاتفوتنا هذه الملاحظة ، لأن نص الآية ، على حسب قواعد الإعراب : أن فاعل التغيير الأول ، المذكور في الآية ، هو الله سبحانه وتعالى ، وفاعل التغيير الثاني ، هم القوم ، أو المجتمع ، وإن كانت القدرة التغييرية الثانية ، هي هبة من الله تعالى للقوم وإقدار منه تعالى للمجتمع على ذلك . وعلينا أن لا ننسى هذا التوزيع في العملية التغييرية ، لأنه كثيراً ما يغيب عنّا ما يخص الإنسان من التغيير ، ويختلط علينا الأمر ، وهذا الغموض ، يفقد الإنسان ميزته وإيجابيته في عملية التغيير .

وإن أي ظن ، أو طمع ، في أنْ يحدث الله هذا التغيير الذي جعله من خصوصياته ـ ألا وهو الجانب الذي يتعلق بما بالقوم وليس بما بالنفس ـ قبل أن يكون القوم هم بأنفسهم قاموا بتغيير ما بأنفسهم .

إن هذا الظن ، والإغفال لهذه السنّة الدقيقة المحكمة ، يبطل النتائج المترتبة على سنّة هذه الآية .

في الآية ترتيب

بين حدوث التغييرين

والتغيير الذي ينبغي أن يحدث أولاً ، هو التغيير الذي جعله الله مهمة القوم وواجبهم ، بإقدار الله تعالى لهم على ذلك . وإن حدوث أي تهاون في الخلط بين التغييرين ، وإدخال التغيير الذي يحدثه الله بالتغيير الذي يقوم به القوم ، أو العكس ، يفقد الآية فعاليتها ، وتضيع فائدة السنَّة الموجودة فيها .

والرجاء ، بأن يحدث الله التغيير الذي يخصه ؛ قبل أن يقوم القوم (المجتمع) بالتغيير الذي خصَّهم الله به ، يكون ـ هذا النظر ـ مخالفاً لنص الآية ، وبالتالي إبطالاً لمكانة الإنسان ، وأمانته ، ومسؤوليته ، ولِمَا منحه الله من مقام الخلافة على أرضه . لأن هذا التحديد في مجالات التغيير ، وهذا الترتيب فيما ينبغي أن يحصل أولاً ، وما يحدث تالياً ، هو الذي يضع البشر أمام مسؤولية حوادث التاريخ . ومن هذه النافذة ، يمكن إبصار أثر البشر ، في أحداث التاريخ ومسؤوليتهم إزاءها .

وعلينا أن نؤكد هذه القواعد دون كلل أو ملل ، لأن عدم الانتباه إليها فاشٍ بين الناس ، والذين ينتبهون إليها ، لا يعطونها قدرها ، فلا بد من تذكرها دائماً وإعطائها قدرها ، حتى يرتفع هذا الإدراك ويبلغ المستوى الذي لا يسمح بمرور الأفكار والكلمات ، التي تعودنا أن نسمعها أو نتحدث بها ، إزاء تفسير أحداث التاريخ ، برؤية الجانب الذي يحدثه الله ، دون إدراك علاقته بالجانب الذي يخص القوم وأولويته أيضاً كما سنبيّنه فيما بعد .

وعلينا أن نوقف هذا التيار ـ الذي يعم مختلف طبقات المجتمع ، في التفسير المتناقض لأحداث التاريخ ـ التيار الذي تَبْطُل معه مسؤولية البشر ، أو يجعلها غير بارزة ، أو يجعلها مستورة ، بينما يبرز الجانب الذي يخص الله :

﴿ وما ظَلَمَهُمُ اللهُ ولَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُون ﴾ [النحل : ١٦/٣٣] .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مجال كل من التغييرين

تغيير الله وتغيير القوم

إن مجال التغيير الذي يحدثه الله ، هو ما بالقوم ، والتغيير الذي أسنده الله إلى القوم ، مجاله ما بأنفس القوم .

﴿ ما بقوم ﴾ يشمل الكثير ، ويشمل أول ما يشمل ما يمكن أن يلاحظ ويرى من أوصاف المجتمع : من الغنى والفقر ، والعزة والذلة ، والصحة والسقم . وينبغي أن نتذكر هنا ، أن القصد ليس الفرد ، كل فرد بذاته ، وإنما المجتمع العام . وأن التغيير الذي يحدثه الله من الصحة السقم ، والغنى والفقر ، والعزة والذلة ، إنما يعود إلى القوم بمجموعهم لاإلى فرد محدد . إذ قد يحدث أن يغنى القوم ، ولكن ليس معنى هذا أن لا يبقى فيهم فقير . كما قد يحدث أن يفقر المجتمع ، وليس معناه أيضاً أن لا يبقى فيهم شخص غني . وكذلك الأمر بالنسبة للصحة والسقم ، قد يصيب القوم السقم ، ولكن لا يشترط أن يصاب كل منهم بسقم ، كما قد يصيب القوم الصحة ولكن لا يشترط أن لا يبقى فيهم سقيم . ونؤكد مرة أخرى ماسبق أن بيناه ، من أن السنّة التي في الآية ليست

فردية ، وإنما هي اجتماعية ، وهذا يقتضي منّا : أن تكون لدينا القدرة على النظر إلى المجتمع (القوم) ككائن واحد بمجموعه ، وهذه نظرة قرآنية بكل معنى الكلمة حيث يقول الله تعالى :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ [الأعراف : ٣٤/٧] ، وقال : ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٣/٢٣] .

فهذا الأجل هنا ليس أجل الفرد وإنما هو أجل الأمة ، لأن للأمة وللمجتمع كياناً يكون حيّاً به وعلى أساسه يأتيه الأجل ، ولا يشترط أن يكون أفراده ماتوا ، ولكن الكيان الذي كان للأمة مات وذهب ، كمجتمع الفراعنة ، ذهب ولم تبقَ له باقية ، لا بهلاك أفراده وإنما بذهاب كيانه . وهذا ما جعل محمد إقبال يقول في أن أجل الأمة الإسلامية إلى قيام الساعة :

أمّة الإسلام تأبى الأجَلا أصلُها الميثاق في قالوا بلى

إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢/٧] .

فالنظر إلى المجتمع كفرد ، يسهل لنا فهم التغيير الذي يحدث فيه .

مثــلاً : يمكن النظر إلى المجتمـع على أســاس الصحـــة والسقم ، باعتبار عدد الأصحاء في المجتمع ، فإذا كان نسبـة الـذين يتمتعون بصحـة كاملة هي ٥٠٪ من المجتمع ، فـإن هـذا المجتمع أقل نعمـة من المجتمع الـذي نسبـة الأصحـاء فيـه تبلغ ٩٠٪ من أفراده . كما أنـه لا شـك أن مصلحـة الفرد أن يعيش في مجتمـع ٩٠٪ من أهلـه أصحـاء بـدلاً من أن يعيش في مجتمع ٥٠٪ منه فقط الذين يتمتعون بصحة جيدة وكاملة .

علينـا أن لا ننسى أن هـذا سنَّـة دنيـويـة ، لا سنَّــة أخرويــة . وكذلك الأمر بالنسبة للغنى والفقر .

هذا ويمكن أن يفصل في هذا الموضوع بأدق وأكثر مما ذكر الآن .

وعلينـا أن نعـود إلى مجـال هـذا التغيير ، الـذي يحـدثـه الله بمـا بـالقـوم . كما أن ممـا يـدل على صحـة هـذا التفسير الــذي سقنـاه لمعنى ﴿ ما بقوم ﴾ في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ .. ﴾ .

إنــه يشمـل الغنى والفقر ، والصحــة والسقم ، والعـزة والــذلــة ـ ما ورد في سورة الأنفال من استبدال كلمـة ﴿ مـا ﴾ في سورة الرَّعـد بكلمة ﴿ نِعْمَة ﴾ حيث قال تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم ﴾ [الأنفال : ٨/٥٣] .

إذ إن كلمة ﴿ نعمة ﴾ أخص من كلمة ﴿ ما ﴾ ؛ لأن كلمة ﴿ ما ﴾ تشمل النعمة والنقمة ، كما أن كلمة ﴿ النعمة ﴾ عامة أيضاً في جميع أنواع النعم ولا سيا أنها جاءت نكرة .

فكلمة ﴿ نِعْمَة ﴾ تشمل الصحة ، وهي من أكبر النعم ، ويقول ﷺ في ذلك : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » ، والرزق نعمة ، وكذلك الغنى ، وسلامة الأعضاء ، ونجابة الأولاد ، ونظافة المساكن ، والمودة والمحبة والإخاء .

﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ [آل عمران : ٣/١٠٣] .

والتراحم والإيثار ، واللين والشدة ، كل في مكانها ، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُم ﴾ [آل عمران : ٣/١٥٩] .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ١٤/٣٤] .

كل هذه النعم ما ذكر منها وما لم يذكر ، وما يقابلها من النقم : متضمنة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم ﴾ [الرّعد : ١٣/١١] .

هذه هي التغييرات التي يحدثها الله تعالى بالأقوام .

وأما التغييرات التي يحدثها الأقوام ، فإن الله تعالى علّقها بما بالأنفس . فما هذا الذي بالأنفس وهل للبشر قُدْرَة على تغييره بما مكّنهم الله فيه ؟

إن المراد بما بالأنفس : الأفكار ، والمفاهيم ، والظنون ، في مجالي الشعور واللاشعور . وملاحظة الارتباط بين التغييرين ، وتمكّن الإنسان من استخدام سنن التغيير ، يعطي للإنسان سيطرة على سنّة التاريخ ، وسيطرة على صنعه وتوجيهه .

وفي الواقع إن ابن خلدون لمح هذا الجانب ببصيرة نفّاذة ، وأدرك أنه لمح شيئاً خطيراً لم يُسبَق إليه في إقامة البرهان ، وإن سُبق إليه في ذكر العنوان . وابن خلدون هو فلتة من فلتات الزمان ، كما يقال عادة ، حين تخفى عوامل السنن في الأحداث ، إذ ألقى ضوءاً كبيراً في هذا المجال . ولكن المشكلة أنه كما لم يسبقه أحد ، كذلك لم يتبعه أحد من بعده أيضاً في العالم الإسلامي ، إذ إنّ هذا المنهج قد بدأ به ابن خلدون ، ثم توقف من بعده .

ومما يلاحظ على ابن خلدون أنه كشف السُّنّة كشيء حتمي لا كسنّة يمكن السيطرة عليها . ومع ذلك فإن الجانب الذي اعتنى به ابن خلدون ؛ هو الذي يمكّن الإنسان من لجام الزمان آخر الأمر .

ولخطورة مـا اهتـدى إليـه ابن خلـدون ، استحق أن يقـول عنـه أشهر مؤرخي العصر ، والذي يمسك بزمام فلسفـة التـاريخ الآن ، وهو توينبي ، قال عن المقدمة : « إنه أعظم عمل من نوعه أمكن أن يبتكره عقـل من العقـول ، في أي عصر من العصـور ، في أي رَجَـأ من أرْجَـاء الأرض »[1] .

ويَعْتبر محمد إقبال : « تصور الوجود حركة مستمرة في الزمان » . هذه الفكرة هي أبرز مـا نجـده في نظر ابن خلـدون إلى التـاريخ ، مما يسـوغ مـا أضفـاه عليـه (فلنت) من مـدح وثنـاء إذ يقـول : « إن أفـلاطـون وأرسطـو وأوجستين ليسـوا نظراء لابن خلـدون ، وكل من عداهم غير جديرين حتى بأن يذكروا إلى جانبه »[2] .

ونحن سنـذكر شيئـاً ممـا قـالـه ابن خلـدون عن تفسير مـا بـالقوم وتحديـده ، ثم بعـد ذلـك نشير إلى ضرورة الاطِّلاع على مـا وراء تلـك التغييرات ، التي تلحـق الأقـوام ممـا سمينـاه نحن التغيير الخـاص بالله تعالى .

يقـول ابن خلـدون : « ... ولم أترك شيئـاً في أوليَّـة الأجيـال

---

(١) ص ٨ ـ من تقديم كتاب التحرير لمقدمة ابن خلدون .

(٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام ـ ص ١٦٢ ـ القاهرة ١٩٥٥ م .

والدول ، وأسباب التصرف والْحَوْل ، وما يعرض في العمران من دولة وملّة ، ومدينةٍ وحِلّة ، وعِزّةٍ وذِلّة ، وكثرة وقِلّة ، وعلم وصناعة ، وبَـدْو وحَضَر ، وواقع ومنتظر ، إلا واستوعبت جُمَلَـهُ ، وأوضحت براهينه وعِلَلَهُ ، فجاء هذا الكتاب فذاً بما ضَمَّنْتُـهُ من العلوم الغريبة ، والحِكَم الْمَحْجُوبَةِ القريبة ، وأنا من بعدها مُوْقِنٌ بالقُصُور بين أهل العصور معترف بالعجز ، راغب من أهل اليدِ البيضاء ... النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء ، والاعترافُ من اللوم مَنْجَاة والْحُسْنَى من الإخوان مرتجاة »[1] .

وابن خلدون له من التطلع إلى ما وراء الأحداث من أسباب ، سواء كانت هذه الأحداث دولاً ومللاً ، وعزّة وذلّة ، وكثرة وقلّة . فإن ما يذكره ابن خلدون هو هذه الأشياء الظاهرة مما بالقوم ، من غنى وفقر ، وصحة وسقم ، وعزة وذلة .

فهذه الأشياء هي التغيير الذي يحدثه الله في نص الآية . وابن خلدون صار له من التطلع إلى مبررات ومسببات هذه النعم والنقم ، لما بالأقوام والدول والملل ، ما دعاه إلى أن يُعمل فكره فوصل إلى ما وصل إليه وهو يقول في ذلك :

---

(١) مقدمة ابن خلدون ـ ص ١٢ طبع دار التحرير ـ القاهرة ١٩٦٦ م .

« فإن التاريخ في ظاهره ، لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ... وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ... وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق » .

فهذا الذي يسميه ابن خلدون باطن التاريخ ؛ هو الذي سميناه القسم الخاص بالأقوام ، في تغيير ما بالأنفس مما أقدرهم الله عليه ، وعلى أساسه حمّلهم أمانته . وابن خلدون يربط التغيير الأول بالتغيير الثاني ، ولكن بعد هذا لم يلح على كيفية قيام البشر بهذا الواجب . ولا حرج عليه فهو يدرك أهمية ما كشف ويشعر بإمكان زيادته . وفي الواقع إن القارئ العادي قد لا يعطي لابن خلدون قيمته الحقيقية ، لأن الذي يعرف الفضل من الناس ذووه ، فإن من عرف وتمرس على معرفة (كيف بدأ الخلق) ، هو الذي يقدر ما فعل ابن خلدون . أما من لا يعرف كيف وجدت العلوم ، ولا كيف تقدمت ، ويظن أن الأمر وجد هكذا ، فهذا لا يمكنه أن يقدر عمل ابن خلدون ، وقد كان ابن خلدون يعرف طبيعة عمله حين قال عن كتابه : إنه ضمنه علوماً غريبة ، وحكماً محجوبة قريبة ، فهذه المحجوبة القريبة هي التي تخفى على الناس ، ولهذا قال ابن خلدون ، في عبقرية نفّاذة ، عن المؤرخين واستيعابهم للأخبار وجمعهم لها : « ... وأدّوها إلينا كما سمعوها ، ولم

يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها فالتحقيق قليل ، والتقليد في الآدميين عريق سليل ، والتطفل على الفنون عريض وطويل ... فللعمران طبائع في أحواله ، ترجع إليها الأخبار ، وتحمل عليها الروايات والآثار ... ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً ... لا يتعرضون لبدايتها ، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها وأظهر من آيتها ، ولا علّة الوقوف عند غايتها ، فيبقى الناظر متطلعاً بعد إلى اقتفاء أحوال مبادئ الدول ومراتبها ، مفتشاً عن المقنع في تباينها أو تناسبها » (ص ١١) .

إن عدم إدراك مشكلة العالم الإسلامي بهذا المستوى ، هو الذي يجعل شباب العالم الإسلامي متطلعاً إلى افتقاد أحوال مبادئ المشكلة .

إن ابن خلدون جعل محور بحثه عن الدول ، ولكن إدراك الموضوع على أساس الحضارة ، ينطبق عليه النظر نفسه ، وهذا ما يحتاج إليه العالم الإسلامي لبحثه كثقافة حضارة لا كدولة ، إذ الدولة جزء من الحضارة ونتاج لها .

وما أحوج العالم الإسلامي والعالم كله ، إلى بذل ما يستحقه البحث في أصول الحضارة في هذا العصر ، كما فعل ابن خلدون ، مع اختلاف المستوى ، ولكن الروح التي بدأ بها ابن خلدون بحثه ، هي

التي تجعل كل من ينظر إليه لا يتمالك من الإعجاب مع قصور كثير من أمثلته ومباحثه قال :

« ولما طالعت كتبَ القوم ، وسبرت غَوْرَ الأمْسِ واليوم ، نبَّهتُ عَيْنَ القريحة من سِنَةِ الغَفْلَةِ والنوم .. فأنشأتُ في التاريخ كتاباً ، ورفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حِجَاباً ، وفَصَّلْتُهُ في الأخبارِ والاعتبارِ باباً باباً ، وأبديتُ فيه لأولية الدول والعمران عِلَلاً وأسباباً ، فهذبت مناحيه تهذيباً ، وقرّبته لأفهام العلماء والخاصة تقريباً ، واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً ، وطريقة مُبْتَدَعَةً وأسلوباً ، وشرحت فيه من أحوال العمْران والتَّمَدُّنِ ، وما يعرض في الاجتماع الإنساني عن العوارض الذاتية ما يُمْتِعُك بِعِلَل الكَوائِن وأسبابها ، ويُعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ، حتى تنزع من التقليد يَدَكَ ، وتقف على أحوال من قَبْلَكَ من الأيام والأجيال وما بعدك » (ص ١١) .

الجانب المهم

هو التغيير الذي يقوم به القوم

والأمر الذي يجب أن نوليه اهتمامنا هو واجب التغيير الذي يخصنا ، كقوم وكمجتمع . هذا التغيير الذي ينبغي أن نقوم به ، يتعلق بما بالأنفس . وهنا نواجه وجهاً لوجه ، مشكلة الإنسان بكل ثقله وبكل تبعاته ، نواجه مشكلة مستقبله وتاريخه ، مشكلة تخلفه ورقيه . فلقد منح الله الإنسان القدرة على أن يغير ما بنفسه وينتقل من حالة إلى حالة أخرى .

والانتقال من الحالة الدنيا إلى الحالة العليا ، هو المقصد من الأمانة التي جاء ذكرها بقوله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَها الإنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٣٣/٧٢] .

ظلوماً : إنْ فهم هذا ولم يعمل به . وجهولاً : إن ظل قانعاً بجهله دون أن يتعلم وهو يستطيع أن يتعلم لو أراد .

وعلينا أن ننظر إلى المجتمع على أنه كائن له كيانه الخاص به ، له ذكاؤه وله اجتهاده ، لأن مصيره ومستقبله كمجتمع في هذه الحياة ، متعلق بمقدار تهيئة نفسه للقيام بهذه المهمة ، مهمة تغيير ما بالأنفس .

من هنا يتبين لنا أن الجهد المجدي للبشر ، في محاولتهم تغيير المجتمع من الشر إلى الخير أو بالعكس ، منطلقةُ الأنفس .

ولكن ما هذه الأنفس ؟

إن القرآن الكريم لم يهتم بكشف الحقيقة عن كنه النفس ، لأنه على ما يظهر ليس محل جدوى ، إنما اهتم بموضوع التعامل مع الأنفس لتغيير ما بها .

وهنا يرد التساؤل : هل بالنفس شيء ابتداءً ؟ أم يوضع فيها كل شيء ؟ وكيف يرفع ما بها ؟ وكيف يستبدل بغيره ؟ وما مقدار الصعوبات التي تقابل الإنسان في هذا المجال ؟

إن الله تعالى يقول عن الإنسان : إنه يستطيع أن يزكي النفس وأن يدسّيها :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾
[الشمس : ٩/٩١ ـ ١٠] .

فما هي مبادئ تَزْكِيَة النفس التي تَجْلِب الفلاح ؟ وما عوامل تدسية النفس التي تجلب الخيبة ؟

على حسب ما يظهر ليس في النفس ابتداء ، إلا القابلية للفجور والتقوى ، وهذا هو الخلق العجيب الصنع ، الذي أبدعه الله تعالى على هذا الاستعداد العظيم من القابلية للفجور والتقوى . يقول الله تعالى في هذا :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ☆ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : ٧ ـ ٨] .

إن الله خلق النفس وسوّاها تسوية عجيبة فألهمها فجورها وتقواها ، فهذه التسوية وهذا الإلهام من عمل الله تعالى ، ثم قال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ☆ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ .

هذا العمل عمل الإنسان ، إن الله نسب التزكية والتدسية للعبد ، ونسب التسوية والإلهام للفجور والتقوى له سبحانه . وما نُسب إلى العبد كذلك ، إنما بإقدارٍ منه تعالى بمنّه وكرمه .

وقوله تعالى :

﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم ﴾ .

يفيد أنـه يمكن أن توضع في النفس الأفكار ابتـداء ، كما يمكن أن يرفع مـا فيهـا من مفـاهيم ويوضـع فيهـا أخرى ، وهـذا أهم ، في عملية التغيير ، من إنشاء الأمر ابتداء ، ومع ذلك أسند الله للبشر هذه القدرة في إزالة المفاهيم واستبدال غيرها بها .

وجدير بنا أن نُعْمِل الفكر والنظر في هذه المهمة المنسوبـة للبشر وعلينا أن نبصر ونتبصر ، والله تعالى يقول لنا :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات ٢١/٥١] .

وكيف لا نولي هذا الموضوع اهتمامنا . وهو مشكلة المسلمين ، بل ومشكلة البشر عامـة ، لأن الأمر ليس بنـاء النفس الآن ابتـداء لأنها لم تعد على الفطرة ، بل هي في حاجة إلى هدم ثم بناء في آن واحد ، فإن مـواريث القرون المـاضيـة قـد غمرت النفـوس بكثير من الآصـار والأغلال ، فلا بـد من إزالتهـا ، وأن يحل محلهـا غيرهـا . كما لا بـد من إعادة الصفاء والوضوح للنفس حيث تراكم عليها الصدأ والرين :

﴿ كَـلاَّ بَـلْ رَانَ عَلَى قُلُـوبِهِمْ مَـا كَـانُـوا يَكْسِبُـونَ ﴾ [المطففون ١٤/٨٣] .

فلم تعد تقدر على أداء مهمتها ، بل هي تقوم بمهمة العطالة .

إن النفس في أصلها سليمة ليس فيها إلا الاستعداد ، مسواة وملهمة فجورها وتقواها ، إلا أن بعض الأفكار تطرأ على الأنفس في وقت مبكر جداً ، في عهد الطفولة الأولى ، فتنزل إلى أعماق النفس لتقوم بدورها في صياغة سلوك الإنسان .

وفي هذا الصدد يقول رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه » والعقائد المذكورة في الحديث ، والأبوان ليست للحصر ، إنما الأمر يشمل كل عقيدة ، وكل وسيلة ومؤثرة ، لإعطاء عقيدة أو فكرة .

معنى الفطرة :

ومعنى الولادة على الفطرة ، هو المعنى الموجود في قوله تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ☆ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ☆ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ☆ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس ٩١/٧ـ١٠] .

وليس معناه أن يولد مسلماً ، فهو يولد مسلماً بالاستعداد ، أما تحويله إلى مسلم بالفعل ، إنما يكون بعملية تزكية النفس ، لأن الإنسان الوليد لو ترك وشأنه منعزلاً لما صار مسلماً ، بل جعْله مسلماً أيضاً في حاجة إلى عمل البيئة والأبوين ومن يقوم مقامهما كما هو مشاهد .

ومعنى الفطرة بشكل أدق ، هو استعداد للميل إلى الحق ، وهذا الاستعداد يجعله يختار الحق ، حين تترك له حرية الاختيار ، على ألا يلحق هذا الاستعداد تشويه .

فإذا عُرِض أمران على شخص خالي الذهن ليس عنده هوًى سابق ، فإنه يميل بفطرته إلى الحق ، فلو عرض الإسلام وغيره من العقائد ، على إنسان خالي الذهن ليس عنده مواريث سابقة ، فإنه يختار الإسلام ، كما هو مشاهد في مجالات التبشير وحوادث التحولات إلى الإسلام . ولكن معنى خلو الذهن من المؤثرات أمر دقيق . وهذا دليل على أن النفس التي تأثرت بالمؤثرات السابقة لم تعد على الفطرة ، وفي هذا المعنى حديث مسلم : « إنِّي خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » . ولابن تيمية بحث عن الفطرة قال[1] :

« والعلوم الفطرية الضرورية حاصلة مع صحة الفطرة وسلامتها . وقد يعرض للفطرة ما يفسدها ويمرضها فيُرى الحق باطلاً » .

---

(١) طريق الوصول إلى العلم المأمول مختار من كتب ابن تيمية ، جمعها عبد الرحمن بن ناصر السعدي النجدي ص ٦١ . مطبعة الإمام ـ مصر .

وقال أيضاً : « والناس إذا تنازعوا في المعقول ، لم يكن قولُ طائفةٍ منها ، مذهب حُجّة على الأخرى ، بل يُرْجَعُ في ذلك إلى الفِطَر السليمة التي لم تتغير باعتقاد يغيّر فطرتها ولا هوى »[١] .

وقال في مكان آخر : « والله خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها ، وبعث إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه . فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكمَّلة بالشِّرْعَة المنزَّلة . وهؤلاء الفلاسفة بدَّلوا وغيَّروا فطرة الله وشِرْعَته ، خَلْقَهُ وأمْرَهُ »[٢] .

وفي (الأساس) للزمخشري .. « فطر الله الخلق وهو فاطر السموات مبتدعها ـ وكل مولود يولد على الفطرة ـ أي على الجِبِلَّةِ القابلة لدين الحق » .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥١

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١

ما بالقوم نتيجة لما بالنفس

إن الله سيغير ما بالقوم حتماً ، إن هم غيّروا ما بأنفسهم ، سنّة الله :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِيْنَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣/٣٥] .

إذ إن هذا التغيير الذي يحدثه الله في القوم ، من نوع التغيير الذي يحدثه الله من الحرق عند السقوط في النار ، والغرق عند الرسوب في الماء .

وهنا ، وإن كنا ندخل في موضوع كلامي ، لا حرج أن نبيّن أن علماء الكلام اختلفوا في : هل النار هي التي تحرق ، أم أن الله تعالى يحدث الحرق عندها ؟

وهل السكين هي التي تقطع أم أن الله يحدث القطع عند حزّ السكين ؟ ... إلخ

ليس المهم الآن بحث هذا الموضوع بهذا الشكل . وإنما المهم أن نعرف أنَّ من سنَّة الله تعالى ، أنْ جعل المادة القابلة للاحتراق تحترق

حين تقع في النار ، وأن يخلق الشبع عند تناول الطعام ، والشفاء مع الدواء ، والإنبات عند توفر الشروط للبذرة .

فصفات المادة من صنع الله تعالى ، فصفة الذّرة وصفة مركباتها ، هذه الصفات والسنن من خلق الله . وهذه الصفات الموجودة في عالم الصغائر والمركبات الميتة منها والحية ، كل هذه الصفات من صنع الله ، الذي وضع لها سنناً لا تتغير ولا تتبدل .

لماذا ؟

وليس من مهمة العلم والعقل أن يفهم العِلّة في هذا ، أي عِلّة لماذا تشكل الماء مثلاً من الهيدروجين والأوكسجين بالذات دون غيرها .

إن جدوى البحث في هذا المجال قليل ، كما يظهر لنا . ولَعَلَّ قوله تعالى :

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ... ﴾
[القصص : ٦٨/٢٨] إنما يتناول مثل هذا السؤال وما يشبهه .

وقد قال في هذا الموضوع (كلود برنار) في مدخل دراسة الطب التجريبي : « فالعالِم الذي سار بالتحليل التجريبي إلى الحتمية بالنسبة لظاهرة ما ، لاجرم يرى في وضوح أنه يجهل هذه الظاهرة في علتها

الأولى ، وإن كان قد بسط سلطانه عليها . فهو يجهل الأداة التي تعمل وتتصرف ، وإن يكن يستطيع الانتفاع بها » ، (ص ٨٥) .

فالاتجاه إلى هذا الأمر في التفكير غير مجد . ولكن السؤال عن

كيف ؟

كيف نحصل على الماء ؟ وكيف نصنع النار ؟ وكيف نربي الإنسان ونعطي له أخلاقاً ، وكيف ننشئ المجتمع الصالح ؟

فهذه أسئلة مفيدة ، لأن معرفة الإجابة عنها ، تجعل للإنسان سلطاناً على الكون المسخر له . لهذا يأمرنا الله أن نسير في الأرض ، وننظر كيف بدأ الخلق :

﴿ قُلْ سِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾
[العنكبوت : ٢٠/٢٩] .

لأن معرفة كيفية تكوُّن الخلق تظهر سننه ، ومعرفة هذه السنن ، هي التي تعزز سلطان الإنسان على هذا الكون المسخر له .

ما الغاية ؟

وهنا سؤال ثالث هو : ما الغاية من الخلق ؟

قد يتفاوت الناس في إدراك الحِكَم والأهداف ، وهذا السؤال

لا يقال عنه إنه لا جدوى منـه ، بل هو قصـد أهل العلم والحكمـة ، وإن خفي ذلك على كثير منهم :

﴿ يؤتِي الحِكْمَـةَ مَن يَشَـاءُ وَمَنْ يـؤتَ الحِكْمَـةَ فَقَـد أُوتِيَ خَيراً كَثِيراً ﴾ [البقرة : ٢/٢٦٩] .

ليس من مهمـة البشر خلـق السنن ، إنهم لا يقـدرون على ذلـك وإنما على البشر أن يكتشفوا هذه السنن ، وأن يجتهدوا في البحث عنهـا شوقاً إلى كشفها والاستفادة منها ، وأن يشكروا الخالق المنعم بها .

فهذه الصفة التي يثبتهـا الله تعـالى للنفس ، من إمكانيـة أن يغير النـاس مـا بهـذه النفوس ، هي من صنع الله ومن إلهـامـه . وتتولـد من الأفكار التي يضعهـا البشر بـالنفس ، صفـات تتعلـق بـالقـوم ، وهـذه الصفات أيضاً من خلق الله تعالى ، كالغنى والفقر والعزة والذلة ...

فهـذه الصفـة الفريـدة للنفس الإنسـانيـة هي التي وصفهـا الله بقوله :

﴿ ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا ☆ فَألْهَمَهَا فُجُورَها وتَقْوَاها ☆ قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ☆ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩١/٧-١٠] .

إن الله ألهم النفس البشريـة فجورهـا وتقواهـا ، ولكن الإنسـان

هو الـذي يـزكّي فيفلـح ، ويـدسّي فيخيب . فكمـا أن اجتماع الـذرات المختلفة بنسب معينة يعطي مركبـات خـاصـة مختلفـة . كـذلـك فـإن اجتماع الأفكار المختلفة بنسب معينـة ، تعطي الإنسـان والمجتمع مسلكيـة معينة متميزة .

ويجدر بنا في هذا المقام ،أن نلفت النظر إلى أن الله جعل للإنسان سلطاناً على تغيير ما بـالنفس ،الـذي هو مجـال جهـد الإنسـان الـذي نحن بصدد البحث عنه ،والذي نريد أن نقيم الأدلة والبراهين عليه .

وفي الواقع إن الذي جهل هـذه الحقيقـة ، ووضع في نفسـه فكرة غامضة أو مخالفة لهذه الحقيقـة ، لاشـك أنـه يحل بـه الكسـل والخمول ، والعجز والجبن ، وهذا ما كان يستعيـذ منـه رسول الله ﷺ « اللّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل » فهذا الـدعـاء ، والتوجـه بـه إلى الله ، يجعـل الإنسـان حَـذِراً من أن تَحْـدُثَ لـديـه أفكارٌ تنتـج الكسلَ والخمولَ ، فإن لم يحـذر هـذه الأفكار ، فهو كمن يرفع يـديـه إلى السماء يقول : « يـا ربّ ، يـا ربّ ، ومطعمـه حرام ، ومشربـه حرام ، وغُـذي بـالحرام » .. فـإن كان غـذاء نفسـه وعقلـه ، من نـوع الأفكار الجـاهليـة والخرافيـة التي تبطـل جهـد الإنسـان وتسيء الظن بـالله ، بالاعتقاد بأن الله لم يعـط هـذا الإنسـان الإمكانيـات الملائمـة ، إن كان كذلك فأنّى يستجاب له !

لقد جعل الله هذه الصفات (الكسل والخمول ...) تتولد ذاتياً من تلك الأفكار الخرافية والجاهلية . ولكن الله تعالى بِمَنِّه وكرمه جعل لنا سلطاناً على تلك الأفكار ، كما جعل سلطاننا على الحديدِ والنار ، فهنا هو التكريم الحق لابن آدم .

وهذه الرابطة بين ما بالقوم وما بالأنفس رابطة ينبغي أن نستحضرها في كل الأمور ، لأنه في اللحظة التي تختفي فيها هذه الرابطة ، لا يمكن إلا أن نكون جبر يين شئنا أم أبينا . فنكون من الذين ينكرون جهد الإنسان وسلطانه . وهذا الإنكار متفاوت إذ لا يكفي أن نعترف بعدة خطوات من جهد الإنسان ثم تقطع رجليه في بقية المراحل . وإنما ينبغي أن نسير به إلى المدى الذي أعطاه الله له .

فإذا خفيت علينا الرابطة بين ما بالأنفس وما بالقوم ، وخفي علينا سلطان الإنسان على ما بالنفس ، حين ذاك إمّا أن نكون جبريين نلقي خطايا البشر على الله ، وإمّا أن نكون غير معترفين بنعمة الله على البشر ، والتي تستوجب الحمد والشكر ، والتسبيح والتقديس لمالك الملك ، واهب القوة مكرم الإنسان ، سبحانه وتعالى عمّا يشركون . وسنوضح ذلك فيما يأتي بإذن الله تعالى .

لتحقيق التغيير لا بد من تغييرين

تغيير القوم ، وتغيير الله ، لا بـد من تـوفرهـا جميعـاً ، ليتحقق التغيير .

كما لا بد من أسبقية التغيير الذي يحدثه القوم . إلاّ أن بين هـذين التغييرين ترابطاً ، فإذا وقع التغيير الذي يخلقـه الله ، دلّ ذلـك قطعاً على أنّ التغيير الـذي يقـوم بـه القـوم ، قـد سبـق أن حـدث ، لأن الله تعالى اشترط هذه الأسبقية .

كما أنه إذا تحقق التغيير الذي يقوم بـه القوم ، فـإن التغيير الـذي يخلقه الله سيتم على أساس وعد الله تعالى الـذي لا يخلف الميعـاد وسنتـه التي لن تجد لها تحويلاً .

ولكن علينا أن ننتبـه إلى أن هـذا التعهـد إنما هو في مجـال القوم ـ أي الجماعة أو المجتمع ـ لا في مجال الفرد ، وفي مجـال الـدنيـا لا في مجـال الآخرة . كما أنـه لا يلـزم أن يحـدث التغيير للفرد الـواحـد إن غيّر ما بنفسه ، وإن كان يمكن أن يحدث ذلك في بعض الأمور الخاصـة مثل السلوك الفردي ، وعلى كلٍّ فإن هذا الوعد أو هذه السنة في هذه الآيـة سنّةٌ اجتماعية ، لا سنّةٍ فردية .

وعلى هذا الأساس ، فكل تغيير يحدث لما بالقوم سواء في الوعي ، والصحة ، والاقتصاد والسياسة والنصر والعزة ، وسائر صنوف النعم والنقم ، يتضمن هذا التغيير ، تغييرين : تغيير القوم ، وتغيير الله .

وبعد بيان هذا التلازم بين التغييرين ، في أنَّ حدوث أحدهما يلزم حدوث الآخر كنتيجة حتمية ، لأن الله هو الذي خلق هذه النتائج من تلك الأعمال ، وأن حدوث هذه النتائج فوري ، كسنن الطبيعة التي أودعها الله في الكون المادي . فالإنسان هو الذي يفعل الأسباب بتمكين من الله تعالى له :

﴿ ولَقَدْ مَكَنَّاكُم فِي الأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٠/٧] .

والله تعالى هو الذي يخلق النتائج ، لأن الإنسان لا قدرة له على خلق النتائج ، وإنما مجال الإنسان يتمركز في الاستفادة من السُّنن الموضوعة .

ويمكن أن نفهم هذا الموضوع في قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُم ما تُمْنُونَ ☆ أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الواقعة : ٥٦/٥٨ـ٥٩] .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ ☆ أَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٥٦/٦٣ـ٦٤] .

هنا أثبت الله للإنسان عملاً ، وأثبت لـذاتـه خلقـاً ، ولكن هـذا لا يتم إلا إذا عمل الإنسان ما يخصه من العمل مهما كان تافهاً .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ إن الإنسـان يقوم بهـذا ، ولكن ليس هو الذي يخلق ، ولا هو الذي وضع السُّنن ، والذي يقوم بـه الإنسـان شيء بسيط ، ولكن الله تعـالى يحـدث هـذه النَّتيجـة ـ من الخلق العجيب ـ من ذاك العمل البسيط .

﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ ﴾ [المؤمنون : ١٤/٢٣] .

وهـذا مثـال مقرب في التمييز بين عمـل الإنســان وخلـق الله . وكذلك الزرع ، فإن الإنسان يغرس ولكن سنَّة الإنبات ، وسنَّـة صنع الثمار ليست من قدرة البشر ، وإنما يقوم الإنسان هنـا أيضـاً ـ كما في كل الأمور التي يقوم بها ـ بعمل بسيط جداً مثل غرس النبـات ، والله بعـد ذلك هو الـذي يخلق تلـك النتـائج البـديعـة . فهـذا مثل قرآني قريب واضح لكل واحد من الناس ، ويمكن لأبسط إنسان أن يمارسه لأنه يقع تحت ملاحظته . وهذا المثل القرآني يُطَمْئِنُ قلبَ المؤمن إلى صِدْقِ هذه القاعدة ، ذات الأهمية البالغة فيما أُنيط بالإنسان من أمانة ومسؤولية في مصيره كمجتمع في الدنيا ، وفي مصيره كفرد في الآخرة .

وبعد هذا نقول : إن ما ورد في القرآن من حديث عن التغيرات الاجتماعية التي تقع للمجتمعات ، لا يذكر الله دائماً في كل موضع التغييرين ، وإنما شأن القرآن أن يذكر أحياناً التغييرين معاً كما في هذه الآية :

﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

وآيات أخرى كثيرة مبثوثة في القرآن مثل قوله تعالى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُم لَعَنَّاهُم وجَعَلْنَا قُلُوبَهُم قَاسِيَةً ﴾ [المائدة : ١٣/٥] . شيء أحدثوه في نفوسهم من الاستخفاف بالميثاق فنتج عن ذلك أن جعل الله قلوبهم قاسية .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ [الصّف : ٥/٦١] .

ففي هذه الآيات جمع الله بين عمل القوم وما خلق الله فيهم نتيجة ذلك . ولكن قد يرد في القرآن أحياناً ذكر أحد التغييرين دون الآخر ، سواء كان المذكور التغيير الذي يخلقه الله ، أو التغيير الذي يحدثه القوم ، ويُفْهَم من ذلك ضمناً التغييران معاً ؛ إذ الترابط بينهما واضح . فمثلاً في قوله تعالى :

﴿ واللهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨/٢] .

في هذه الآية ذُكِرَ التغييران ، التغييرُ الذي يخلقه الله تعالى من عدم الهداية ، والتغييرُ الذي يحدثه القوم من نظراتهم التي تُهَوِّن عليهم ارتكابَ الظلم ؛ أي أن الله لا يغير ما بقوم من الضلال ، حتى يغيرَ القومُ ما بهم من الظلم ، أو ما بأنفسهم من الظنون والأفكارِ التي تسهل عليهم ارتكابَ الظلم .

والذي يريد أن يجعل من هذه القاعدة القرآنية ، قاعدة مطردة ، عليه أن يستحضر دائماً ـ وخاصة حين يكون الحديث عن المجتمعات وما يحدث لها ـ تَضَمُّن التغييرين في كل موطن يتوهم فيه الاقتصار على أحدهما .

فإذا جاءت آية تقول : إن الله أنعم على قوم ، وأعزهم ونصرهم ورزقهم من الطيبات ، فمعنى ذلك أن عند هؤلاء الأقوام في أنفسهم ما يوجب ذلك ، وكذلك الأمر بالنسبة لما يحيق بالبشر من النقم ، وما ينزل عليهم من المصائب فلا ينزل شيء إلا بإذن الله ، وإلا بما كسبت أيدي الناس .

وهذا الاستحضار الذي حرصنا عليه ، هو نفس ما دعا إليه وفعله ابن كثير في تفسير قوله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَعَلَى سَمْعِهِم وَعَلَى أَبْصَارِهِم غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة : ٢/٧] .

فَسَّر ابنُ كثير الْخَتْمَ : بالطبع ، نقلاً عن السُّدِّي ثم قال : وقال ابن جرير : وقال بعضهم : إنما معنى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِم ﴾ إخبار من الله عن تكبُّرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دُعُوا إليه من الحق . كما يقال : إن فلاناً أَصَمُّ عن هذا الكلام ، إذا امتنع عن سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً . وقال ابن جرير : وهذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم . قلت : - يعني ابن كثير نفسه - وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما ردَّه ابن جرير هنا . وتأوّل الآية من خمسةِ أوجهٍ وكلها ضعيفة جداً ، وما جرَّأه على ذلك إلا اعتزاله ، لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيحٌ عنده ، يتعالى الله عنه في اعتقاده . ولو فهم قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصّف : ٦١/٥] .

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وأَبْصَارَهُم كَمَا لَمْ يؤمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُم فِي طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٦/١١٠] .

وما أشبه ذلك من الآيات الكريمات الدالةِ على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهدى ، جزاءً وفاقاً على تماديهم في

الباطل وتركِهم الحقّ ، وهذا عدلٌ منـه تعـالى وَحَسَنٌ ، وليس بقبيح . فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال ، والله أعلم .

وقـال القرطبي : « وأجمعت الأمـة على أن الله تعـالى قـد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم ... » .

وهـذا التحليـل الـذي ردَّ بـه ابن كثير على الـزمخشري ، يُقَرِّرُ بوضوح القاعدة التي نريـد أن نثبتهـا هنـا ، من أن الختم الـذي هو من عمل الله ، نتيجة طبيعية للزيغ والكفر ، الذي فعله الإنسـان بنـاء على ما بنفسه . وعلينا أن نتذكر هذه العلاقة في كل موطن .

وكما أن القرآن أحيانـاً يـذكر عمل الله وعمل القوم معـاً وبوضوح وتفصيـل ، فهـو أحيـانـاً أخرى يقتصر على أحـدهمـا ، على أسـاس أنه يستلـزم حـدوث الآخر ضمنـاً ، وهـذا مـا ذكره ابن كثير ، إذ إن هـذه الآيـة اقتصرت على ذكر عمل الله في الظـاهر . لهـذا استشهـد ابن كثير بآيات أخرى ذُكِرَ فيها العَمَلانِ بالتفصيل .

ومن الآيـات التي تـوقـع في شبهـات كبيرة ـ وذلـك حين يَغْفَـلُ الإنســان المسلم ، عن هــذه العــلاقــة بين تغيير الله وتغيير القــوم ـ قوله تعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تؤتِي الْمُلْـكَ مَنْ تَشَـاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْـكَ

مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُـذِلُّ مَنْ تَشَـاءُ بِيَـدِكَ الْخَيْرُ إنَّـكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦/٣] .

ففي هذه الآية لم يذكر الله إلا إيتاء الملك ونزع الملك ، وإيتـاء العزة وإنزال الذل ، وقد ربط هذه الأمور بالمشيئة دون أن يذكر عمل الإنســان . ولكن مشيئــة الله ليس لنــا أن نحــددهــا نحن ، وإنمــا الله سبحانه وتعالى هو الذي يحدد ذلك فهو يقول :

﴿ ومَـا تَشَـاؤونَ إلاَّ أنْ يَشَـاءَ اللهُ إنَّ اللهَ كَـانَ عَلِيمـاً حَكِيمـاً ☆ يُـدْخِـلُ مَنْ يَشَـاءُ فِي رَحْمَتِـهِ والظَّــالِمِيْنَ أعَـدَّ لَهُمْ عَـذابـاً ألِيْماً ﴾ [الإنسان : ٣٠/٧٦-٣١] ، إنه يدخل من يشـاء في رحمتـه ، ولكن الظـالمين أعدَّ لهم عذاباً أليماً .

فإذا حاول البعض أن يفسّر مشيئة الله كما يريـد هو ، يُرَدُّ عليـه بأن هذه المشيئة ؛ هي المشيئة التي على أساسهـا وضع الله سنّـة الاجتماع البشري في قـولــه تعــالى : ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَـا بِقَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأنْفُسِهِم ﴾ ، والتزام هذه القاعدة ، وردّ المسلمين إليها ، أمرٌ جوهري في عملية التغيير .

كما أن من المفيـد أيضاً في هـذا المـوضـوع ، تفهُّم القــاعـدة التي يقررها ابن تيمية كثيراً ، من أن مشيئة الله قسمان :

١ ـ مشيئة كونية .

٢ ـ مشيئة شرعية .

فالمرض مشيئة كونية يمكن للإنسان أن يبطلها باتّخاذ الأسباب .

والزكاة مشيئة شرعية ولا يجوز مخالفتها أو التحايل عليها .

ومن الخطأ البالغ ، أن يُظَنَّ أن الله يؤتي المُلْكَ لقوم لم يهيئوا أنفسَهم للملك ، كما أن العزة والذلة لا يوزعها الله جُزافاً . والخطأ في الموضوع منشؤه ؛ ظن أن الله مثل طغاة البشر ـ حتى ليس مثل عادليهم ـ يوزع ملكه كما يفعل الظالمون .

تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً . بل الله أحكم الحاكمين . وإظهارُ هذه الحِكْمة واجبُ الذين أُخِذَ منهم الميثاقَ حين آتاهم الكتاب أن يبينوه للناس ولا يكتمونه .

وكما قال ابن كثير عن الزمخشري لو أنه تذكر قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصّف : ٥/٦١] ، لما وقع في هذه المشكلة . كذلك المسلمون ، الذين يقعون في رؤية مشكلة المشيئة مبتورة ، ولو أنهم رجعوا إلى السُّنن التي وضعها الله تعالى في قوله :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم ﴾

[الرّعد : ١١/١٣] ، بشمولها وإحـاطتهـا ، لكان عصمـةً لهم من الزَّيغ ، في نسبـة الفوضى وعـدم المعقوليـة إلى الله ، حين يقفون حيـارى في تفسير الأحـداث . ولا يغرنّـك منهم تنزيـه الله عن النقص ، إذ إن الموضـوع مشوش في أذهانهم .

ومشيئة الله هي ؛ تمكين النـاس من تزكيـة أنفسهم وتـدسيتهـا ، وليس تمكينهم من أحدهما فقـط . وقـد يـأتي على الإنسـان وقت يفقـد فيه هذه القدرة ، بعد أن يفسدها ، فيطبع الله على قلبـه ، ويعجز عن العودة والاهتداء ، فيحق عليه قولـه تعـالى : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِـدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ [الكهف : ١٧/١٨] .

وهذا المعنى هو محتوى خاتمة آية التغيير في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِنْ دُوْنِـهِ مِنْ وَالٍ ﴾ [الرّعد : ١١/١٣] .

وهـذا واضح في حـديث الفتنـة التي تعرض على القلوب كالحصير عوداً عوداً . إذ يكون الإنسان في البدء قادراً على التزكيـة والتـدسيـة ، ولكن بعد أن تفسد فطرته ، قد يعجز عن أن يملك دائمـاً تلـك الحريـة والقدرة على الاختيار التي كان يملكها . وصيرورة هذا الإنسان على هذا الشكل ، إنما بسعيه ، وليس لأن الله فرض ذلك عليه ابتداء .

قلنا فيما سبق ؛ إن الله يخلق الصفات في المادة . ونُكَمِّلُ الموضوعَ الآن ، بأن نبين أن الله يخلقُ الأفعالَ من الأفكارِ . فالأفكارُ المشوشةُ تتولدُ منها أفعالٌ مبتورة ، و يمكن أن نرى مثالاً واقعياً على هنا في واقع المسلمين الذين طال عليهم الأمد .

فمن تمكّن من معرِفَةِ الخواص التي يخلقها الله تعالى في المواد ، يمكنه أن يسيطر عليها . كذلك من تمكن من معرفة الأفعال التي يخلقها الله تعالى مما بالأنفس ، يمكن له أن يسيطر على المجتمع . وفي الحقيقة تعتبر هذه النقطة من أعظم ما جاء به الأنبياء ، ونزلت من أجله الكتب ، وأمر من أجله بالاعتبار بِسِيَرِ الماضين ، والنظر إلى الأنفس . وما لم يَرْجِعْ إلى المسلمين هذا العلمُ ، وهذا الفهمُ ، فستظل أعمالُهم تسيطرُ عليها الفوضى والتدابُر مع القلقِ والْحَيْرَةِ .

مفهوم التغيير عند الاخرين

وفي علم النفس الفردي والاجتماعي

مفهوم التغيير عند الآخرين

بحثنا في فصول هذا الكتاب ، فكرة التغيير مستهدين بهداية الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرَّعد : ١١/١٣] .

وبيَّنَّا التغيير الذي يحدثه الله في خلق النتائج ، والتغيير الذي يقوم به البشر في تهيئة الأسباب ، والتعامل معها ، وضربنا لذلك مثل خلق الإنسان ، وزرع النبات ، وفي مجال سلوك الإنسان طبَّقنا هذه القاعدة بالتفصيل ، كيف يتغير سلوك الإنسان حسب ما في نفسه ، كما بحثنا إمكانية تغيير ما بالنفس وأنها من مهمة البشر ، كما أنها سنّة اجتماعية لا سنّة فردية على عمومها ، كما سنبين تفاوت ما بالنفس في الرسوخ ومايترتب على ذلك ، وكذلك خضوع بعض سلوك الإنسان إلى فكر راسخ غير متذكَّر ... إلخ .

وموضوع تغيير المجتمعات له مقام الصدارة في بحوث هذا العصر. و يعتبر الشيوعيون أنفسهم أنهم أبو عُذْرَةِ هذه الفِكْرَة ، وعلى أساسها يطلقون على

أنفسهم مفهومَ التقدمية ، و يَعِيبُون فَهْمَ كُلِّ البشرية بأنه ميتـافيزيقي رجعي طوباوي ، معتبرين أن غيرهم يسلب نفسه القدرة على تغيير التاريخ .

وقد لخصوا تاريخ المعرفة البشرية في مقدمة الديالكتيـك ، واعتبروا ، أن ماركس وانجلس بيّنا : أن الفلاسفة فسّروا العالم ، بينما المهمُّ تغييره .

وفي كتـاب (النـاس والعلم والمجتمع) الـذي ألّفـه ستـة من علماء الروس ، جاء في هذا الكتاب جواب عن التساؤل التالي : « ما هو دور الناس في مجرى التاريخ ؟ فهل الضرورة (الحتمية) التـاريخيـة شبيهـة بقدر الآلهة ، ففيم العمل إذن ؟ وهل أحـدنـا ينـاضل لكي يـأتي الربيع والصّيْف ؟ إن قـانـون التـاريـخ غير قـانـون الطبيعـة ، حيث تشق الطريـق بـواسطـة نشـاط النـاس . وقـوانين التـاريـخ لا تعمـل أوتوماتيكياً ، وإن الناس هم الـذين يصنعون تـاريخهم بنشـاط النـاس الذين يعون بدرجة متفاوتـة من الوضوح حـاجـات التطور الاجتماعي المختمرة ... » (ص ٦٩) . وفي صفحـة ٨٧ من الكتـاب نفســه : « إن المـاركسيـة بكشفهـا عن قوانين التطور الاجتماعي ، وإعطـائهـا صورة علمية عن العالم تحولت إلى سلاحٍ روحي للبروليتاريا » .

وفي الديالكتيك : « في المزية الثـالثـة للفلسفـة المـاركسيـة : كما أمكنَ معرفـةُ قـوانينِ تَطَـوُّرِ الطبيعـة ، يمكن معرفـة قـوانين تطـور

المجتمع ، ولها دلالة موضوعية . وبالتالي رغم تعقد حوادث الحياة الاجتماعية وتشابكها من الممكن أن يصبح علماً فيه من الدقة ما في البيولوجيا . وقادراً على استخدام قوانين التطور الاجتماعي في تطبيقات علمية ، وبالتالي تصبح الاشتراكية علماً »[1] .

هذه الميزة التي رأوها لأنفسهم ، وجدوها حجة كافية لنبذ كل فكرة إيمانية على الإطلاق كما قالوا في الديالكتيك :

« إذا كانت الطبيعة هي وحدَها القادرة على إعطائنا الحقيقة الموضوعية ، أصبح من الواجب نَبْذُ كلِّ نظريةٍ إيمانية على الإطلاق » .

وإذا تذكرنا ما سبق أن ذكرناه ، من أننا حين نتعلم كيف نقرأ آيات الله في الآفاق والأنفس ، لم يعد هناك ما يجعلنا نخاف على آيات الله في الكتاب ، لأن آيات الآفاق والأنفس ستبين أن آيات الكتاب هي الحق .

وكذلك إذا تذكرنا أن علينا أن لا نبخس الناس أشياءهم ، وأن الحكمة لا تضر من أي وعاء خرجت ، فإن الاعتراف بجانب الصواب الذي في النظرية الماركسية لا يضرنا شيئاً . ولكن إذا رفضنا جانب

---

(١) صحيح أنهم عرفوا وجود السُّنن للمجتمعات ، ولكن ذلكَ إثبات للسُّنن ، إلا أن تفسيرهم لهذه السُّنن لم يكن إلا جزئياً جداً حيث حصروه في وسائل الإنتاج ، بينما وسائل الإنتاج جزءٌ صغير يساهم في تغيير ما بالنفس ، وإن كانت كتاباتهم الأخيرة تدلُّ على الخروج ـ من هذا الضيق الذي كانوا فيه ـ إلى حدٍّ ما .

الصواب بسبب جانب الكفرِ الذي عندهم لا نكون مصيبين .

وحين يقول الماركسي : إن دراسة التاريخ الاجتماعي أصبحت علماً ، ينبغي أن لا نقول له : أخطأت ، بل نقول له : هذا حق ، وإذا اعتبر أن مظاهر الطبيعة قادرة على إعطائنا حقائق موضوعية ، علينا أن نراه تقريراً بأن آيات الآفاق تعطي حقائق موضوعية . ونزيدُ له أيضاً بأن آيات الأنفس كذلك تعطي حقائق موضوعية .

ولكن حين يصل من أقواله هذه إلى القول بأنه : « أصبح ، بناءً على ذلك ، من الواجب نبذ كل نظرية إيمانية على الإطلاق » .

هنا نقول له : إن هذه النتيجة من تلك المقدمة ، هي الفكرة الطوباوية الناشئة عن الكراهية والعاطفة ، لا عن الدراسة الموضوعية .

والواقع أن الأمر كما قال العقاد عن مؤمني وملاحدة القرن السابع عشر من أن كلا الطرفين كانا يصلان من مقدمة واحدة إلى نتيجة واحدة ؛ المقدمة هي : إذا ثبت أن الأرض تدور . النتيجة : لم تعد حاجة إلى الله .

كان كلا الفريقين : الملحد والمسيحي يصلان إلى هذه النتيجة من تلك المقدمة . ولكن لم يكن يخطر في بال الطرفين إمكانُ أن تدور الأرضُ ولا يلزمُ من ذلك نفيُ الإيمان .

وكـذلـك الأمر الآن في النظريـة المـاركسيـة ، من إثبـات سنن الاجتماع ، فـإذا اهتـدوا إلى سنن وآيـات في سَيْرِ المجتمعـات ، كما اهتـدى قبلهم علماءُ الفلك إلى سُنَن سَير الأجرام ، فإن ذلـك لا علاقـة لـه بنفي الإيمان . كما قال أبو حامدِ الغزاليُّ في كتابه (المنقذُ من الضلالِ) :

« فـإذا عَلِمْتُ أن العشرةَ أكثرُ من الثلاثـة . فلو قـال لي قـائل : لا بل الثلاثةَ أكثرُ بدليلِ أني أقلبُ هذه العصا ثعباناً ، وقلبها وشاهدتُ ذلك منه ، لم أشكَّ بسببـه في معرفتي ، ولم يحصل لي منـه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، فأما الشك فيما علمته فلا » .

وكـذلـك اليوم حين تَبْرُزُ الأدلـةُ على إمكان تغيير المجتمع بـاتخـاذ الأسـاليب العلميـة ، ويصلـون من ذلـك إلى نفي الإيمـان ، علينـا أن لا يثيرنـا هـذا ... ولكن علينـا أن نتـأمل السُّنن التي يَستخـدمـونهـا في تسخير المجتمع لهدفهم الذي اتخذوه . ونحن في هذه الحـالـة نكون حصلنـا المناعة التي نحن في حاجة إليها .

ولكن قبل هذا وذاك علينا أن نتعلم كيف نتعامل مع آيـات الله في الآفاق والأنفس . وبدون هذا فسنظل نَعْمَهُ في غيِّنا ، ونتنازعُ في : هَلْ هُوَ مَلَكٌ أو شَيْطانٌ ؟

علم النفس الفردي والاجتماعي

نحن نسمع عن علم النفس وعلم الاجتماع ، ولكن عندما نريد أن نتعامل مع الواقع فسنلمس أموراً تختلف عن الأمر النظري المجرد ، إذ لا نجد حدوداً واضحة تفصلهما .

ففي الواقع لا نجد علم النفس الفردي ، لأن هذا الفرد المنعزل الذي لا يتصل بأحد ولا يختلط به أحد أيضاً ، غير موجود في الواقع ، ولو وُجِدَ هذا الفردُ المنعزلُ لكان أقربَ إلى التوحشِ منهُ إلى الآدمية ، لأن الذي يُخْرِجُ الإنسان من التوحش إلى الآدمية هو : اكتسابه للخبرات منذ نشأته وهو طفل ، ومنذ نشأة المجتمع ، وهو بعد لا يجد في نفسه الدافع إلى سَتْرِ عورته ، فتجمعت لديه خِبْراتُ الأجيالِ وتراثُ النبوات . فالناشئ لا ينشأ في فراغ ، بل مع تراث طويل العمر معقد .

ولكنهم حين يقولون علم النفس ، فإنهم يبحثون عن استعداد الإنسان الفردي لتلقي مفاهيمه من المحيط والتكيف معه . وهذه الاستعداداتُ كلُّها لا تجدي شيئاً خارج المجتمع .

وليس هناك علم نفس فردي كحقيقة واقعة ما دام استمرار الجنس البشري لا يتم إلا بالتزاوج ، والحياة الاجتماعية تتدرج لدى الكائنات الحية على حسب رقيها . فالسلحفاة تضع البيض ولا صلة لها بعد ذلك بصغارها ، فهي لا تحضن البيض ولا ترعى الصغار .. والطير ترقد على البيض وترعى الصغار ، والحيوانات اللبونة تكتسب صغارها الخبرة من آبائها بالعشرة . « وهذا التدريب الذي يمارسه الوَلُوْدَ الحادِبُ على أولاده ، قد أثار في العالم استمراراً جديداً للوعي ، ولم يُقَدِّر الإنسانُ قيمة هذه الفكرة إلا في العصر الحاضر »[1] .

فغريزة الحنو والحدب عند الحيوان والإنسان ، تشكل منطلق الحياة الاجتماعية ، وهي ترتقي عند الإنسان لتصل إلى مرحلة الإيثار ، والتي هي أساس الحياة الاجتماعية الراقية ﴿ ويُؤثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم وَلَوْ كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩/٥٩] .

إن غريزة الْحُنوِّ والْحَدْبِ التي وضعها الله في البهائم حتى يستمر بقاؤها ، هي نفسها التي تَكْفُلُ للمجتمعات البشرية حسنَ نموها ، وسرَّ رقيها .

والإنسان أطول المخلوقات حضانة ، ويمتص في طفولته تراث

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ، تأليف ولز : ٦١/١ ، القاهرة ١٩٥٦

الأجيال . ومن هنا كانت مرحلة الطفولة ذات أهمية بالغة في التكيف مع نمط معين من الحياة الاجتماعية ، بقيمها وتقاليدها ، ذلك أن أثر البيئة شديد على تكوين الإنسان . وهذا هو ما يشير إليه حديث : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه » فالمجتمع هو الذي يعطي للفرد الذي ينشأ فيه قيمه وموازينه .

والاهتداء إلى السنن والقوانين ، التي تَدْمِجُ الفردَ بالمجتمع يجعل للإنسان سلطاناً على صنع المجتمع ، وصياغةِ الفردِ الذي ينشأ فيه . كما يُحَقِّقُ المجتمع بهذه السنن حالةِ الـ (نحنُ) ، أي شعور الفرد بالكيان الاجتماعي الذي يندمج فيه . وبالرغم من اختلاف هذه الكيانات في أشكالها ، فإن سننها واحدة .

وقد أشرنا فيما سبق إلى عمومية السنة التي تخضع لها المجتمعات أو الأقوام ، مع إمكان اختلافها في الأشكال والنماذج .

وقد قال لفين ١٩٤٣ : « يجب ألا تَفُتَّ في عَضُدِنا تلك الصعابُ التي تعترض سبيلنا . والرأي عندي أن علماء النفس الاجتماعيين لهم الحق في أن يثقوا ويفخروا ، إلى حدٍّ ما ، بما تمّ في السنوات الأخيرة . فَمَنْ مِنّا كان يجرؤأن يتنبأ منذ بضع سنوات أننا سوف نستطيع ذات

يوم أن نقيس الأجواء الاجتماعية ، ونقيس الزعماءَ وندربهم ، ونَدْرُس توترات الجماعة ، وعمليات التصحيح الجماعية كما هي الحال الآن »[1] .

إن إدراك أثر الاشتراك في العبادة واللباس والتحية الموحدة في تكوين الشعور بالوحدة الاجتماعية ، إن هذا الإدراك يدخل هذه الأعمال تحت ضوء جديد ، ويرفع من قيمة أدائها ، ويبعث فيها حيوية جديدة .

وعلم الاجتماع ككل علم ، سواء كان الفلك أو التاريخ الطبيعي أو البيولوجي ، أول ما يبرز يبرز في صورة تعارض الإيمان ، كما هو واضح فيما حدث حول الفلك وكذلك حدث لعلم الاجتماع وعلم النفس .

ولقد عشت هذه الظاهرة أيضاً ، فيما يخص علم النفس والاجتماع ، إذ كان يدرسنا هذا العلم في أواسط الخمسينات في الأزهر أستاذ ذواختصاص . ولست أدري كيف أعبر عن مقدار الفتور ، إن لم أقل النفور الذي كنا نتبادله ، إذ لم تكن لديه القدرة على أن يرينا الموضوع أنه آيات الله في الآفاق والأنفس التي تشهد لآيات الكتاب أنه الحق . وكنا أعجز منه في إيجاد هذه العلاقة بين هذا العلم وبين الدين .

(1) الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي لمصطفى سويف ، ص ٣٠٠ ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٥ م .

ومجيء العلوم في هذه العصور على هذه الصورة الْمُعْرِضَة عن الإيمان ، أو في صورة الْمُعَارِضَةِ للإيمان ، كان عقبة في سبيل الاستفادة منها في الوقت المناسب .

وما لم يتقدم أهل الرأي والخبرة عند المسلمين لإزالة شبهة التعارض هذه - بين أي علم حق وبين الإيمان - فإن الهوة تبقى بعيدة بين المسلمين وبين الاستفادة الكاملة من هذه العلوم .

ومن العوارض الخاصة بالنسبة لهذا العلم ، ما اقترن به في بدئه من اسم (فرويد) ، والمدرسة التي حاولت أن تفسر علم النفس حول محور دافع غريزة الجنس ، وكذا فجاجة الكتب ، وأسلوب تناولهم إما بشكل لا صلة له بالدين والإيمان ، أو بشكل يُفْهَمُ منه أنه يُعارِضُ أحكام الدين والإيمان . وبهذا يظل الموضوع فاقداً الصلة التي تُخْرِجُ هذا العلم النافع من غابة التوحش التي حشر فيها .

إن هذا العلم لا يزال في توحشه ولم يستأنس بعد عند المسلمين ، حتى يسخروه لتغيير ما بأنفسهم ، ولكشف ما ينبغي أن يغيروه مما بأنفسهم .

كل هذه الملابسات أطالت الوقت الذي كان يمكن أن يختصر ، وأبقت الحق ملتبساً بالباطل ، عن قصد من البعض ودون قصد من

البعض الآخر . وكلما بُحِثَت هذه المشكلة أتذكر حديث الرسول ﷺ : « أنه كان في المدينة فزع ، فركب النبي ﷺ ثم خرج يركض وحده ، فركب الناس يركضون خلفه ، فاستقبلهم وهو يقول لهم : لم تراعوا لم تراعوا ... » . وبوّب البخاري لهذا الحديث عدة أبواب منها : مبادرة الإمام عند الفزع ، والخروج في الفزع وحده ، والسرعة والركض في الفزع إلخ ...

إن كان الفزع العسكري ، يقتضي السرعةَ والفزعَ والخروجَ للاستبراء للناس ، فإن الغارة الثقافية ، والفزع الثقافي ، يستوجبان على أهل العلم أن يكونوا أوْلَى الناسِ بالخروج إليهما مسرعين راكضين حتى يعودوا للناس بحقيقة الخبر ، وبجلاء الفزع . هذا وإن المفاجأة ، في الغزو الثقافي تترك وراءها من الخسائر في الأرواح ، وما يتبع ذلك من فقدان كل غال ورخيص ، أكثر مما يتركه أي غازٍ فاتح . بل إن أثر الغزو الثقافي أبقى على مرِّ الزمن .

وقبل أن أختم هذا الحديث ، لاسيا وقد ذكرت قصة الأستاذ الذي درسنا علم النفس والاجتماع ، والذي يبلبل الفكر على نفسه وعلى غيره ، كما فعل الوليد بن عقبة والذي نزل فيه قوله تعالى :

﴿ يـاأيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُوا إنْ جَـاءَكُم فَـاسِقٌ بِنَبَـأ فَتَبَيَّنُـوا ... ﴾

[الحجرات : ٤٩/٦] . أرى عليَّ أن أذكر الشيخ محمد عرفة حيث كان في محاضراته ، يحثنا على دراسة علم النفس ، كوصية يريد أن يودع فيها كل اهتمامه للشباب الذين كانوا يتلقون عنه ، وإني أذكر له هذه الوصية كلما كان البحث في مشكلة تخلف المسلمين . وكان يذكّرنا أن حلَّ مشكلة (تخلُّف المسلمين) لن يتمَّ إلا إذا تمت السيطرة على سنن تغيير ما بالأنفس .

كما عَليَّ أن أذكر أن لمالك بن نبي مقالاً في كتابه (في مهب المعركة) عن الأفكار الميتة والقاتلة ، أبدع فيه في تحليل العوامل السلبية التي يعانيها المسلم عند اتصاله بعالم الثقافات .

العلاقة

بين سلوك الإنسان وما بنَفسه

هنا نستطيع أن نقول : إن سلوك الإنسان وأفعاله من عمل الله ، ومن خلـق الله ، وهـذا القـول ليس دعمـاً لمـا يسبـق إلى الفهم من قوله تعالى :

﴿ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصّافات : ٩٦/٣٧] .

وما يُذْكر حولـه من نقـاش في علم الكلام ، فيما إذا كان الله يخلق أفعال العبـاد . ولكن الموضوع الـذي نبحثـه هو أن سلوك الإنسـان أثر ونتيجة . وقد قررنا سـابقـاً أن نتـائج الأسبـاب إنما يخلقهـا الله تعـالى خلقاً مباشراً لا دخل فيه لأحد :

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [القصص : ٦٨/٢٨] .

إلا أن علينا هنا نأخذ بعين الاعتبار ما أثبته الله للبشر من قـدرة على تغيير ما بالأنفس ، وهذا الذي بالأنفس والذي تَنْتُجُ عنه الأفعال ، هو ما يخضع لسلطان البشر .

ومن الملاحظ أنه لا توجد علاقة بين السبب والنتيجة عقلاً ، وإنما المشاهدة هي التي تقر هذه العلاقة . فمثلاً رأينا أن (كذا) ترتب على (كذا) فآمنّا به ، أما لِمَ ترتب هذا على هذا أو على ذاك بالذات دون غيره ؟ فذلك لا طاقة لنا به . ولكن الذي لنا فيه طاقة هو ـ وذلك بعد أن نعلم أن عمل كذا ، أو حادثة كذا ترتب على كذا سبب من الأسباب ـ أن نتعامل مع هذه العلاقة بحيث نوجهها الوجهة التي تنفعنا ، ولا ندعها تأخذ الوجهة التي نتضرر منها .

ومن المناسب هنا أن نعود إلى ما سبق أن ذكرناه ، من أمثلة خلق الإنسان ، ونبات الزرع ... إن الإنسان يفعل سبباً معيناً يَنْتُجُ منه خَلقٌ من الله ، كخلق الإنسان ، وثمرة الزرع . كذلك فإن الأفكارَ التي نضعها في الأنفس ، يخلق الله منها أفعالاً . فكما أن لنا قدرة على زرع الأرض زيتوناً ورماناً أو عنباً ... فكذلك لنا قدرة على وضع الأفكار في النفس ، والتي تُنْتِجُ كلٌّ منها عَمَلاً أو سلوكاً معيناً ، كما تثمر كل شجرة ثمراً معيناً . فنحن لنا قدرة زرع ما نشاء من الثمار ، ولكن ليس لنا القدرة على أن نجعل شجرة النخيل تثمر بطيخاً ، وكذلك الأفكار .

مثال : إن الله تعالى خلق بعض الأجسام ناقلاً للكهرباء ، وبعضها عازلاً . وليس مجال البحث هنا لِمَ جعل الله هذه المادة بعينها

تنقل دون تلك التي لا تنقل ؟ وإنما البحث هو كيف نستفيد من هـذه الصفة للتحكم في الكهرباء ؟

وكذلك الأمر بالنسبة لأعمـال الإنسـان ليس السؤال الجـدي : لم ترتب كـذا عمـل على كـذا فكرة ؟ ولكن الجـدي هـو أن نســأل كيف نرفع كـذا فكرة تُنْتِجُ كـذا عمـلاً ، وكيف نضـع كـذا فكرة في الأنفس لتنتج كذا عملاً . وهنا الذي جعل الله لنا سلطانـاً عليـه . ولهـذا صـار الإنسـان مسؤولاً عن أعماله .

وبعد هذا نقول : إن سلوك الإنسان وتصرفاتـه نتيجـة لأفكاره ، وبتعبير أدق لما بنفسه ، فإذا تغير ما بنفس الإنسـان سواء كان بجهـده ، أو بجهـد غيره ، فـإن سلوكـه لا محـالـة يتغير . وهـذا التغيير يمكن أن يصل إلى درجة النقيض ، كأن يتحول الإقدام إلى إحجـام ، أو السرور إلى حزن ، أو أن الإقدام يتحول إلى نوع من الفتور .

فـإذا رأينـا نتـائـج أعمــال المسلمين تعــاكس مصــالحهم ، فــإن مـا بـأنفسهم عن الموضوع خـاطئ ، وينبغي أن يتغير مـا بـأنفسهم حتى تتغير أعمالهم ، وإذا رأينـاهم مترددين في موقفهم تجـاه أمر ، فـإن ذلـك يرجع إلى ما بأنفسهم عن هذا الأمر من القناعة بعدم جدواه ، أو بعـدم إمكان الوصول إليه .

مثال أول :

يحكى أن عملاقاً بلغ من القوة ما يـدهش ويحير ، وطبقت شهرته الآفـاق ، وترامت أنبـاؤه حتى وصلت إلى عمـلاق آخر في بلـد قريب ، فأحب أن يتعرف على ذلك الذي يتحدث عنـه النـاس ، فـأرسل إليه رسالة لطيفة يطلب وده ويعرض صـداقتـه ، ولكن خـاب ظنـه حين جاءه الجواب القاسي ينهاه عن التطاول فوق مرتبته ...

فصمم على الانتقام لشرفه من هـذا المغرور الـذي أسـاء الأدب في رده ، فخرج يسعى إليـه حتى وصـل إلى مشـارف أرضـه . ولـمـا سمع المغرور وقـع أقـدام خصمـه تهز الأرض خـارت قـواه وتغير لـونـه ، وأدركت امرأته حاله ، فـأشـارت عليـه أن ينـدس في الفراش ، وألقت عليه دثاراً ... ولما وصل الخصم الهائج سألها عن المغرور الـذي لا يعرف قدر الناس ، حتى يعرفه نفسه ، ويعلمه كيف يكون جواب النـاس .. فطلبت منه ألا يرفع صوته حتى لا يوقـظ الطفل النـائم ، وأشـارت إلى قدميه وقد برزتا من تحت الدثار ، فلما رآهما ، هذا الذي ما عرف قلبه الخوف ، صمت قليلاً كأنما ألقي عليـه دلو من الماء البـارد ، ثم قـال في نفسه :

طفل ...؟! فكيف يكون الأب إذاً ...؟! ثم أطلق ساقيه للريح عائداً من حيث أتى .

حين نسمع هذه الأسطورة قد نعرف أنها أسطورة ، ولكن مع ذلك نتفاعل مع أحداثها ، لأن أحداثها خاضعة لسنن نفسية . هذه الأسطورة مخترعة ، ولكن هذا الاختراع يدل على المفاهيم التي في نفس مخترعها ، سواء كانت قيم هذه المفاهيم سامية أم وضعية . فبدلاً من أن تُبرز القصة أو الأسطورة خنوع الإنسان للقوة ، كان يمكن أن تبرز استعلاء الإنسان بالحق ، كما في قصة السحرة مع فرعون كيف أنهم كانوا يقولون في أول النهار :

﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الغَالِبُونَ ﴾ [الشُعراء : ٢٦/٤٤] .

حتى إذا أتى عليهم المساء رأيتهم يواجهون طاغية الدنيا بقولهم :

﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه : ٢٠/٧٢] .

فالقصة التي ذكرناها تبين الدافع الخلقي لما بالنفس عند المجتمع ، الذي من تراثه هذه القصة ، فتبرز روح الاستكبار في مواقف القوة ، وروح الخنوع عند الضعف إذ هما متلازمتان . إن المستكبر حين يفقد القوة يذل ، والإنسان الحق لا يستكبر عندما يملك القوة ، ولا يذل عندما يفقدها .

وإذا تذكرنا قصة النبي يوسف عليه السلام ، نجد فيها مغزى

رائعاً حيث يمثل الإنسان الذي يملك القوة أمام سلطان الشهوة ، بينما الكتب القصصية في الحضارات الأخرى تدور حول الإنسان الذي تعصف غرائزه بإرادته .

لندع هذا ولننظر إلى سلوك الإنسان في الأسطورة التي ذكرناها . إذ المهم في الموضوع : هو خضوع سلوك الإنسان لما بنفسه مهما كان هذا الذي بالنفس . إن الشجاعة والجبن ، والإقدام والهزيمة ، كل هذا يتعلق بما بالنفس ، فإذا تغير ما بالنفس يتغير حالاً سلوك الإنسان ، ولا يعود يملك سيطرة على قواه ، ويخضع خضوعاً مطلقاً لسلطان ما حلّ بنفسه . فمن يملك القدرة على تغيير ما بالنفس يملك أن يغير ما بالقوم .

ففي الأسطورة غيّرت المرأة بذكائها ما بنفس العملاق ، فتغير وضعه حالاً ، كأنّما حدث كبس على زر ، فإذا المروحة دائرة ، وإذا الرّجُلُ يرتجف وهكذا ... ويمكن أن يشاهد مثل ذلك في سلوك العالم الإسلامي في كثير من تصرفاته .

ولنذكر حادثة أخرى ولكنها واقعية ، إذ هي من السيرة النبوية الشريفة ، لتعطينا مثالاً حياً عن سلطان الإنسان الذي يملك القدرة على تغيير ما بالأنفس ، فإذا ما بالأقوام يتغير حالاً .

مثال آخر :

قال ابن قَيِّمِ الجوزيَّة في (زادِ الْمَعَاد) ، في حديثه عن غزوة الخندق :

« ثم إن الله عزّ وجلّ ، وله الحمد ، صنع أمراً من عنده خذل به العدوَّ ، وهزم جموعهم وفَلَّ حَدَّهُم . فكان مما هيأ من ذلك ، أن رجلاً من غطفان يقال له نُعَيْمُ بن مَسْعود بن عامر رضي الله عنه ، جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إني أسلمت ، فَمُرْنِي بما شئت . فقال رسول الله ﷺ : إنما أنت رجل واحد فَخَذِّل عنّا ما استطعت فإن الحربَ خُدْعَةٌ . فذهب من فوره إلى بني قريظة ، وكان عشيراً لهم في الجاهلية ، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه ، فقال : يا بني قُرَيْظَة ، إنكم قد حاربتم محمداً ، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا استمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم . قالوا : فما العمل يا نُعَيْم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأي . ثم مضى على وجهه إلى قريش وقال لهم : تعلمون ودّي لكم ونصحي لكم ؟ قالوا : نعم ، قال : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم ، من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم راسلوه ، أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يوالونه عليكم فإن سألوكم

رهائن فلا تعطوهم . ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت من شوال ، بعثوا إلى يهود : إنَّا لسنا بأرض مُقام ، وقد هلك الكُراع والْخُفُّ فانهضوا بنا حتى نُنَاجِزَ محمداً . فأرسل إليهم يهود : إن اليوم يوم سبت ، وقد علمتم ماأصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن . فلما جاءتهم رسلهم بذلك ، قالت قريش : صدقكم والله نُعَيْم ، فتخاذل الفريقان » .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِم لَمْ يَنَالُوا خَيْراً ﴾ [الأحزاب : ٢٥/٣٣] .

هذا أسلوب في تغيير ما بأنفس القوم في موضوع معين ، ليتغير موقفهم . وكان هذا العمل بإشارة واضحة من الرسول ﷺ . وكان المنفِّذ متقناً للعملية مستغلاً للظروف ، ولعلمه بالتاريخ الماضي والحاضر للمشكلة التي يعيشها ، ولا سيما مع صِلاته الخاصة السابقة مع الفريقين ، كل ذلك مع تقدير جيد للموقف الذي عليه بنو قريظة وقريش ، مكَّنه أن يؤثر بأنفسهم التأثير المناسب الذي يقتضيه الموقف ، فكان نجاحه بارعاً .

إن قصة نُعَيْم بن مسعود نَمُوذجٌ واضح جداً على استغلال قدرة تغيير ما بالأنفس لتغيير المواقف .

مثال ثالث :

وفي هذا العصر ، أخذت العقول البشرية تهتم بهذا الموضوع للوصول إلى نتائجَ إيجابية بجهود قليلة ، لا تحتاج إلا إلى مهارات في معرفة نفسية الأقوام وتاريخهم ، وما يمكن أن يقبلوه بسهولة ، أو يرفضوه دون تردد ، وتوجيه ذلك كله لصالح المشرف على عملية التغيير .

أجَلْ إن الذين يتنازعون الإشراف على هذا العالم ، وتسييره وفق الجهة التي يريدونها ، أخذوا يولون هذا المجال ما يستحقه من اهتمام .

جاء في كتاب مناهج السياسة الخارجية :

« ولكن الدبلوماسية ، بما فيها دبلوماسية أمريكا ، لا تستطيع أن تفعل شيئاً أكثر من استغلال إرادة رجال الدول الأجانب للتوصل إلى الأهداف . ويجب على أمريكا لخلق هذه الإرادة أن تستغل جميع وسائل السياسة الخارجية ، بما فيها الوسائل السياسية والعسكرية والاقتصادية والنفسية » .

وجاء في هذا الكتاب أيضاً عن السياسة الخارجية الثقافية والإيديولوجية :

« وتحاول أمريكا بلوغ أهدافها الخارجية بوسائل نفسية ، وتبدو هذه الوسائل أقل صلة بالسياسة من الوسائل الاقتصادية والعسّكرية .

ولكنها لا تختلف عنها في الغاية المتوخاة ، فتعمل بأساليب متنوعة بما فيها العلاقات الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية لتوسيع منطقة التفاهم ...؟ والتأثير على مواقف الأصدقاء والخصوم ، أو المحايدين كل على مقتضى حاله ، وقلما تحقق هذه الأساليب الآمال المعقودة عليها ، لأنها أكثر ما تثير ردّ فعل عفوياً معاكساً ، ويكون فعلها أقل إذا استعملت بمعزل عن وسائل أخرى ، ولكن حِرْص الأمريكيين عليها يعبر عن رغبتهم في الاهتداء إلى بديل - للأساليب السياسية الصرفة - وتطلعهم لخرق الستائر الرسمية الكثيفة ... واستعمال الوسائل النفسية لتكييف مواقف الأفراد والجماعات في البلاد الأجنبية ، هو إحدى وظائف الممثلين الدبلوماسيين الأمريكيين في الخارج ، والشخصيات المعنية بالسياسة الخارجية في الداخل ، وهو أهم وظيفة لوكالة الاستعلامات الأمريكية التي تشرف على صوت أمريكا ، وبرامج أنبائية وثقافية أخرى موجهة للشعوب الأجنبية .

ولأهمية هذه الوسائل التي يطلق عليها مجتمعةً اسم (الحرب النفسية) ، أنشأ ترومان مجلساً أعلى للاستراتيجية النفسية مهمته أن يوصي ببرامج من هذا النوع وينسق العمل .

وأدرك ايزنهاور أن الوسائل النفسية تكون أشد فعالية إذا نسقت مع السياسة العامة فحوَّل مجلس الاستراتيجية النفسية لمجلس تنسيق العمليات » .

يظهر أثر ما بالنفس

ولو كان ما بالنفس وهماً

يبقى سلوك الإنسان مترتباً على ما بنفسه ، بغضّ النظر عن صواب وخطأ ما بالنفس . فقد يقتنع الإنسان بوهم من الأوهام إلا أنه يصدقه كأنه حقيقة ، فهذا الوهم يتسلط على سلوك الإنسان ومواقفه إزاء الأحداث . ومن هنا نعلم أن الناس الذين يحملون أوهاماً عن أي أمر من الأمور ، تأتي نتيجة أعمالهم وفقاً لهذا الوهم ، ويتصرفون طبقاً للوهم الذي انطبع في نفوسهم ، كما تصرف العملاق حين شاهد القدمين ، وتوهم أن والدَ الطفلِ الذي هذا شأنه سيكونُ ضخماً جداً ، وعلى هذا التصديق الذي حدث في نفسه ، رأى أن يكون تصرفه أن ينسحب بسرعة من الورطة التي وقع فيها ، فإن ما حدث من الوهم في نفسه وقنع به ، أعقب عنده هذا المسلك المضحك لمن يعرف حقيقة الأمر . ولكن العملاق لم يكن ضاحكاً حين هرب ، بل كان جاداً كل الجد .

إن مثل هذا الموقف يمكن أن يحدث لأية أمة من الأمم ، ولأي

شعب من الشعوب إذا حمل أفكاراً وهمية عن خصمه أو صديقه ، سواء في الاعتماد عليه في غير موضعه ، كإقدام العملاق أولاً بكل حماس ، ثم انسحابه المريع مرة أخرى بكل خزي وعار . وسيظل يقبل ويدبر مادام ما بنفسه عن الموضوع ليس حقيقة ، وإنما أوهام كوّنها هو بنفسه ونظراته الذاتية الخاصة ، أو وضعها له اختصاصي بارع . والخلاص من الوهم يتم بإدراك الأمر على وجهه الصحيح ، وإدراك الوجه الصحيح لا يتم إلا بفتح السمع والبصر .

ولكن كيف يمكن أن يفتح سمعه وبصره إن كان في وهمه أن فتح السمع والبصر أخطر من أي خطر آخر ؟ وكم في العالم الإسلامي من الأسوار الوهمية التي تُعيقُ حركته ، وكم رأى قدمَي الحركة الوهابية ضخمتين ، حين امتلأ رعباً من الفكرة الأولية البسيطة التي تتضمنها في ترك مالا دليل عليه .

ولأبي حامد الغزالي في كتابه (المستصفى) ، كلام حسن يتعلق بهذا الموضوع ، ذكره حين بحث الحسن والقبح ، والخلاف حولها .. قال : « الغلطة الثالثة : سببها سبق الوهم إلى العكس ... » إلى أن قال : « ومن هذا نفرة الملدوغ من الحبل المرقش ... ولكن خلقت النفوس مطيعة للأوهام ، وإن كانت كاذبة . حتى إن الطبع لينفر من حسناء سميت باسم اليهود . والنفرة من المذاهب إذا نسبت إلى من

يسيء الاعتقاد فيهم ليست طبعاً للعوام خاصة بل طبع أكثر العقلاء والمتسمين بالعلوم ، إلاَّ العلماء الراسخين الذين أراهم الله الحق حقّاً وقوّاهم على اتِّباعه . وأكثر الخلق قوى نفوسهم مطيعةٌ للأوهام الكاذبة ... وأكثر إقدام الخلق وإحجامِهم بسبب هذه الأوهام ، فإن الوهم عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الإنسان عن المبيت في بيت فيه ميِّت فتنبه لهذه المثيرات » .

وهذا الموضوع بحر متلاطم الأمواج علينا أن نتذكر ما مرَّت به الأفكار من الغموض إلى أن وصلت إلى درجة الوضوح والتسخير . فإن المعرفة العامية البسيطة لفكرة ما غير المعرفة العلمية التي تسخر الفكرة لمعالجة مشاكل البشر .

وعلينا أن ندرك كيف يمكن الاستفادة من هذا الموضوع في حماية البشر والمجتمع من الانقياد للأوهام . إن الغزالي ذكر هذا الموضوع وألقى عليه في بضعة أسطر ضوءاً ساطعاً . ولكنَّ الاستفادة من هذا الموضوع ونَقْلَه إلى المجالِ العلمي ، في كشف سنة تسخيره لحماية الأمة من الوقوع في الأوهام شيء آخر ، ليس كمجرد وجود الفكرة في ذهن فرد متوقد ، لأن هذا يحتاج إلى متخصصين في الموضوع لتشقيق الجوانب المتعددة لتطبيقاته في النشاط البشري .

إن الإنسان الذي اكتشف التيار الكهربائي وإمكان إمراره في السلك ، يختلف أمره عن الآلاف المؤلفة من المهندسين الاختصاصيين في استغلال هذا التيار فيما لا يحصى من الأغراض لخدمة الإنسان في حاجاته اليومية .

كذلك موضوع تسليط الأوهام على البشر حين تحول بينهم وبين رؤية مشكلة ما على حقيقتها .

يذكر راسل[1] كيف يَشُلُّ الخوفُ الناشئ من الوهم المتسلط ، جهدَ الكائن الحي حتى في مجال الحيوان . يذكر عن دابة كانت في مكان ، وقد حدث أن شبت النيران فيه ، وبذل المشرفون على إطفاء الحريق جهوداً شاقة في إنقاذ الدابة وإخراجها من المكان الذي هي فيه ، ولم يكن الجهد صعباً إلا لأن الدابة لا تريد الخروج لما سيطر عليها من الوهم وأصابها من الخوف . وراسل على أسلوبه الساخر ، لا تفوته الفرصة في أن يعمم هذه القاعدة ، التي على أثرها قامت الدابة بتعطيل جهد الذين سيسعون لإنقاذها . قال راسل : إن الخوف الناشئ من الأوهام المتسلطة على عقول ساسة العصر ، الذين يشرفون على هذا العالم ، وهم لا يقلون تأثراً بالأوهام عن الدابة ، يمنعهم من الخروج من

---

(١) في كتابه هل للإنسان من مستقبل ، ص ٣٢ ، طبع القاهرة الدار القومية .

المشاكل الوهمية المحيطة بهم والتي تعرضهم لأخطار متزايدة على مرّ الزمن » .

وربما لا يتيسر لكل أحد أن يرى الدابة محصورة ضمن النيران تمتنع عن الخروج منها ، ولكن أيسر من ذلك أن نرى الدابة تُشد من أمام وتُدفع من الخلف لاجتياز ساقية ، أو عبور جسر أو السير في مدخل ما ، فلا تتقدم لما تخشى من وقوعها في خطر ماحق .

ويمكن أن نرى مجتمعاً بأكمله يصاب بمثل هذه الأوهام . وفي الواقع إن الغزالي كان بارعاً حين قال : « وأكثر إقدام الخلق وإحجامهم بسبب هذه الأوهام ، فإن الوهم عظيم الاستيلاء على النفس » .

ونحن وإن كان يصعب علينا إخراج القاعدة إلى حيز المعقولية ، إلا أن وراء إظهار القاعدة صعوبة أخرى أشد وعورة ، وذلك حين نبدأ في تطبيق القاعدة على الجزئيات من المسائل المعنية التي تدخل تحت القاعدة .

يقول في ذلك ابن تيمية : « يسهل على الناس التسليم بالقاعدة على عمومها ، ولكن إذا مسّت القاعدةُ الجزئياتِ التي تخصهم ، تغير موقفهم ولم يقبلوا تفصيل ماقبلوه عموماً » . وما أحوجنا إلى الحذق في كشف الأوهام التي توقف حركة العالم الإسلامي أمام ممرات معينة

ـ كوقوف الدابة لا ينفعها الشدّ ولا الدفع ـ ليتمكن من العبور بأمان من بين الأخطار التي يتخيلها في وهمه ، بينما في الواقع لا وجود لها إلا في نفسه . وحسبك مراجعة ما لقيه المصلحون من العنت ، والبطء الشديد ، حتى وصل الناس إلى درجة إمكان التساهل مع أفكارهم أو قبولها . ومع ذلك لا أشعر أني دللتك على خريطة أو أعطيتك « بوصلة » تخرجنا من الأوهام التي نعيش فيها وتجعل سيرنا في أمان ، في هذه الغابة التي لا تزال تعمر بالغيلان ، لأننا لم نملك بعد البصيرة الكافية .

إن التبصر في الحياة هو المسنونة الزرق كأنياب أغوال ، وكم نتعلق بأنواع من القش لتنقذنا ، بينما التبصر هو سفينة النجاة ، وبيننا وبين التبصر أهوال ترعبنا . كيف لا يكون كذلك ونحن نعتبر التبصر قنطرة اللادينية ؟ فكيف يمكن أن نعبر مثل هذا الجسر مهما كان الشّد من أمام والدفع من خلف ؟ مادام المربون في العالم الإسلامي تهددهم مثل هذه الأخطار الوهمية ؟ ويوحون إلى طلابهم الخوف والرعب الذي ورثوه . وحين نرى مثل صاحب مجلة (المسلمون) الدكتور سعيد رمضان يضع في مجلته[1] عنواناً مثل :

« همسات ... في أذن قادة الرأي والفكر في ديار الإسلام » .

---

(١) المجلد السابع ، ص ٧٧٠ ، عام ١٩٦٢ م .

ثم يضع تحت هذا العنوان مثل هذه الكلمات الآتيـة : « إن ثورة اجتماعيـة توشـك أن تعمّ العـالم الإسـلامي كلـه . إننـا لا نشـك في هـذا لحظـة .. بل نراهـا كما نرى الشمس السـاطعـة . وسيكون عنوان الثورة (حرية الفكر والضمير) . فإذا لم تحملوا أنتم هذه الرايات وأنتم أحق بها من غيركم فسيحملها غيركم ...

ثم يقول : لا تستهينوا أيهـا السـادة بهـذه الكلمـات فـإن الشعوب الإسلامية سـائرة إلى هـذا المصير وعلى هـذه الطريق ، ولن يثنيهـا عن ذلك شيء ... فاحذروا .. احذروا أن تفلت الرايات من أيديكم » .

نجـد مثل هـذا الكـلام تحت عنـوان همسـات في أذن قـادة الرأي والفكر في ديـار الإسـلام . أي أن الحـديث عن هـذا لم يتجـاوز بعــد الهمسات فقط وفي أذن البعض أيضاً وفي أسلوب خطابي .

حقاً إن الأمر يحتـاج إلى همس ، إذ إن ثلوج جمود الفكر وحبس الضمائر لم يـذبهـا بعـد شعـاع التبصر والاعتبـار ﴿ فَـاعْتَبِرُوا يَـا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢/٥٩] .

ما بالنفس يتفاوت في الرسوخ

قلنا فيما سبق : إن التغير الذي ينبغي أن نهتم به هو الجانب الذي يقوم به القوم من تغيير ما بالأنفس . فإذا كان مجال الأقوام في التغيير هو مجال ما بالأنفس ، فعلينا أن نتبصر في هذا المجال الذي يخص الإنسان من التغيير . إن ما بالنفس يختلف في الرسوخ ولذلك كان تأثيره على ما بالقوم متفاوتاً في القوة والضعف .

وهناك عوامل لترسيخ ما بالنفس منها ، التكرار في العرض والشرح ، والممارسة العملية لها في الحياة التطبيقية .

ويمكن أن يقارن الموضوع بمثال آخر ، فإن جسم الإنسان مركب من أعضاء تعمل لا إرادياً ، مثل عمل القلب والرئتين والمعدة وإفرازات الغدد ، ولو أن عمل هذه الأعضاء كان إرادياً ، لكان الجهد الذي تتحمله الإرادة الواعية والفكر جهداً شاقاً ، ولما أمكنه التفرغ إلى التفكير في مجالات أخرى تتعلق بنمو الإنسان الفكري . ولكن الله سبحانه وتعالى ، أعطى لجهاز الفكر عند الإنسان تخفيفاً في المهمات ، حين جعل عمل كثير من الأعضاء آلياً .

كذلك في مجال ما بالنفس ، يمكن أن نلاحظ أن النفس تقوم بهذه العملية ، من جعل بعض الأفكار تعمل عملها آلياً وذلك حين ترسخ وتتعمق فتصير هذه الأفكار تعمل آلياً دون الحاجة إلى استحضار فكر . فمثلاً حين نتكلم ونعبر عن المعاني بالعبارات ، ويتداخل في هذا العمل الوعي والآلية ، فإن استحضار الكلمات يكاد يكون آلياً دون جهد فكري ، كلما كانت الكلمات راسخة ومستخدمة كثيراً ، وهذا متفاوت أيضاً .

وإن الانتباه إلى مجالات ما بالأنفس من الوعي ، وما تجاوز الوعي ، إلى أن صار جزءاً عميقاً في النفس يعمل وكأنه مستقل عن الوعي . إن الانتباه إلى هذا التفاوت ، وعوامل الترسيخ ، وملاحظة أثر مرحلة الطفولة في ترسيخ الأفكار والمفاهيم ، وما تعارف عليه الناس من أن العلم في الصغر كالنقش في الحجر ، إنما هو مبني على ملاحظة لها أثرها . وذاك الانتباه يفتح أمامنا آفاقاً في مجال تغيير ما بالنفس . فالخبراء الذين لاحظوا تجارب البشر ، عندهم من المعرفة بهذه الأمور ما ليس عند غيرهم ، والرسول ﷺ ضرب لنا مثلاً في كيفية ترسخ الفكرة ، أو تمكنها حتى تصير ملكة ، تتولد منها أعمال الإنسان وواقع المجتمع :

عن حذيفة عن رسول الله ﷺ قال : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير ، عوداً عوداً ، فأي قلب أشربها نَكَت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نَكَت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفاة فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مرْبَاداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً » . رواه مسلم . قال ابن جرير : فأخبر رسول الله ﷺ : أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الختم من الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم ﴾ .

ونظير الختم والطبع على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلاَّ بفضِّ ذلك عنها ثم حلِّها ، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب ، من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم ، إلا بعد فضِّ خاتمه وحلِّ رباطه عنه »[1] .

هنا حديث الرسول ﷺ ، يضرب المثل في الرسوخ في جانب كل من الخير والشر ، إلا أن الختم والطبع استعمل في جانب الشر ،

---

(١) تفسير ابن كثير : الآية السابعة من سورة البقرة .

والخطأ الذي ترسخ وتعلق بالقلب ، فضرب المثل بأشياء محسوسة للأشياء التي لا تحس أو للأمور المعنوية ، وذلك بذكر مثل الحصير ، وكيف تعرض الأعواد عند نسجها عوداً عوداً ، فبناء النفس كذلك إنما يتم خلال الزمن ، بعرض الأفكار عليها بوسائل مختلفة فكرة ، فكرة . والقلب الذي يتقبل الفتنة والشر ، تنكت فيه نكتة سوداء ، والذي يرفض يبقى أبيض لا تضره فتنة . وكذلك العرض المستمر المتتابع على القلوب كنسج الحصير . هذا الحديث في مجال كيف يرسخ ما بالنفس ، ويصل رسوخ ما بالنفس إلى درجة النسيان ، ولكن هذا النسيان والغياب عن الوعي لا يجعله يكف عن التأثير على عمل الإنسان وسلوكه بل يبقى مؤثراً ولو كان خارجاً عن الوعي .

وهنا يمكن أن يشبه ما يحدث في النفس ـ من أن النفس تحول بعض الأفكار إلى الأعماق ، مما يجعل هذه الأفكار تعمل عملها آلياً ـ بما يحدث في بعض أعضاء الجسم عند الإنسان التي تعمل آلياً ، كذلك الأفكار المترسبة في الأعماق تعمل آلياً وتستجيب للأحداث والمثيرات استجابة آلية ، ولا يشترط أن يكون كل ما ترسخ صواباً بل الخطأ أيضاً يترسخ ، وقد يكون الصواب فيه قليلاً .

ونبش هذه المفاهيم المترسبة وإخراجها إلى حيز الوعي ، وإجراء

التغيير اللازم عليها عملية ليست خارجة عن طوق الإنسان ، لأن ذلك من المهمة التي أوكلها الله إلى الإنسان لا كفرد ، بل كقوم وكمجتمع .

إن تغيير ما بالنفس ، سواء كان في مجال الوعي أو كان مترسباً منسياً بكل محتوى النفس الظاهر والباطن ، إن هذا التغيير من مهمة الإنسان ، وكلما كشف سنن التعامل مع النفس كان قادراً على إحداث التغيير . فمن هنا تتأكد الحاجة إلى ضرورة تحصيل علم سنن تغيير ما بالنفس .

وفي مجال أهمية الطفولة في ترسيخ العقيدة ، حديث رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ... » وقد سبق أن بيَّنا معنى الفطرة . وأما أن الأبوين يقومان بمهمة ترسيخ العقيدة ، فإن الطفولة تمتص هذه العوائد والمفاهيم والقيم ، تمتص ما لا ينطق به الأبوان أو المجتمع ، مما يستنبطه الطفل من الأذواق والاستحسان والاستقباح لأمور كثيرة لا يشعر بها الطفل ، وإنما يتشربها تشرباً ، ويوحى بها إليه إيحاء ، مما يؤثر في سلوكه في كبره دون إرادة منه ، ولا سيما في اللحظات التي لا يتيسر فيها إعمال الرأي ، وفي اللحظات الحرجة التي ينبغي فيها أن يتخذ قراراً ، أو يختار أمراً ، فهنا عوامل السوابق التاريخية الماضية تؤثر في اتخاذ الاتجاه المعين ، لأن دخل الإرادة فيه قليل ، أو منعدم . فهذا معنى الختم

والطبـع ، حين يحـدث الشلـل للفكر الـواعي ويعجز أن يسيطر على تصرفـه ، فيستلم الـزمـام ومـا ترسب من الأفكار ، وهـذا مـا يسمى بـالعـواطف والانفعـالات . فـالعـواطف هي الأفكار المترسبـة ، والانفعالات هي آثارهـا العمليـة . وعلينـا أن نعرف أن الشخص حين يقوم بعملـه ، فهـذا العمـل الـذي يقـوم بـه ليس مصـدره فقـط الفكر الواعي ، وإنما يشترك فيه أيضاً الأفكار المترسبة التي نسيت ، ولكنها لم تُفقد بل ظلت تؤدي دورها بأرسخ مما كانت .

وقد تنبه ابن خلدون إلى شيء من هذا حين تحدث عن اكتسـاب ملكة البيان العربي والشعر ، قال : « فمن قل حفظه أو عَدِمَ لم يكن له شعر وإنما هـو نظم سـاقـط ، واجتنـاب الشعر أولى بمن لم يكن لـه محفوظ . ثم الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحـة للنسج على المنوال يقبل على النظم وبـالإكثـار منـه تستحكم ملكتـه وترسـخ ... » . ومـوطن الشـاهـد من كلام ابن خلـدون ليس هـذا بل مـا سيـأتي وهـو قـولـه : « وربمـا يقـال إن من شرطـه نسيـان ذلـك المحفـوظ ، لتمحي رسـومـه الحرفية الظاهرة ، إذ هي صادة عن استعمالها بعينها ، فإذا نسيها ، وقد تكيفت النفس بها ، انتقش الأسلوب فيها كأنـه منوال يـأخـذ بـالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة »[1] .

---

(١) المقدمة ، ص ٥٠٧

وما يقوله ابن خلدون لا ينطبق على الشعر فقط ، بل على كل علم من العلوم إذا أراد الإنسان أن يكسب ملكة فيه .

وكذلك إتقان لغة التخاطب إنما يكون في عهد الطفولة ، وإتقانها بعد الكبر كأهلها أصعب ، فهذه كلها راجعة إلى سنن تغيير ما بالنفس . فكما أن أهل اللغة الواحدة يتكلمون لغة واحدة ، كذلك أهل الثقافة الواحدة والنمط الموحد في التفكير ، يفكرون بأسلوب واحد من التفكير ، وكذلك أذواقهم وما يميلون إليه وما يكرهونه وما يقدرونه وما لا يبالون به . وكما بين الأفراد فروق فردية ، كذلك بين الأمم والمجتمعات ، إلا أن مصدر الفروق مختلف ، إذ مصدره في الأفراد الفطرة والاستعداد الأوَّلي ، بينما في المجتمعات مصدره مقدار استغلال هذه الاستعدادات . فالأول موهوب والثاني مكسوب . والخلط بينهما يكون سبباً لتبني العصبيات التي وصفها الرسول ﷺ بأنها منتنة .

والفطرة الموهوبة للأفراد من الذكاء تتفاوت ، وهذا التفاوت فطري موجود في كل مكان بين الأفراد ، في كل المجتمعات ، وحتى بين الإخوة من متوسطي الذكاء ومن هم دون ذلك أو فوقه . ولكن المجتمعات ليست هكذا بالفطرة ، بل ما بين المجتمعات من الفروق إنما يرجع إلى مواريثهم المكتسبة من الثقافة ، فبهذا يتفاوتون . ويمكن

لكل مجتمع أن يرفع أو يغير من مواريثه الاجتماعية . والمجتمع الواحد يختلف أفراده بين من نشأ في المدينة أو في القرية ، والطبقة المعينة ، وإن كانت وسائل الثقافة الآخذة في التطور والانتشار تقلل من الفروق . فكل مجتمع فيه من الأفراد نسبة معينة من المتمازين والمتوسطين والمقصرين بالفطرة . وما يمكن أن يطرأ على مجتمع ما من رفع المستوى يمكن أن يطبق على كل المجتمعات .

ولا توجد بين المجتمعات فروق في الفطرة وإنما فروق في الثقافة المكتسبة ، وهذه تقبل التغيير ارتفاعاً وانخفاضاً . لهذا كما يمكن أن يكون تطور مجتمع ما إلى الأمام ، يمكن أن يكون تغيير مجتمع آخر إلى الوراء . كما يمكن أن يحدث تغيران في آن واحد في مجتمع واحد ، كأن يحدث تغيير في جانب إلى الأمام ، وتغيير آخر إلى الوراء ، وتفيد معرفة هذا حتى يمكن تمييز ما فيه تقدم وتأخر .

إن هذه المواضيع لم تصر في العالم الإسلامي علماً تطبيقياً ، وإن وجد شيء من ذلك ، فهي نظرات عند أفراد قلائل لم يصلوا بعد إلى درجة سد فرض الكفاية في الأمة . ولا بدّ أن يصل عدد هؤلاء علماً وعملاً إلى ما يسدّ حاجة الأمة ، حتى يمكن اختزال زمن التغيير إلى أدنى حدّ .

ولكن إلى الآن لم تصح عندنا الفكرة نظرياً ، فضلاً عن أن

نستخـدم ذلـك في سبيـل تغيير مـا بـالأنفس لنغير مـا بـالمجتمـع ، ولا مؤسسات تقوم بمهمة التغيير ومراقبة السير على أساس علم منهجي . ويحول دون ذلك أفكار معينة مترسبـة في أعمـاقنـا ، اعتماداً على القضاء وتحقيراً لقدرة الإنسان وجهده .

ويمكن أن نقرب الفكرة قليـلاً ، إذا قـارنـا عمليـة التغيير فيما بـالأنفس بعمليـة تعليم القراءة والكتـابـة ، فلو ترك تعليم المجتمع القراءة والكتابة ، إلى مجهود كل شخص دون أن تكون مؤسسات لتعليم أطفـال الأمـة ، فـإن الفـوضى ستحـل . وكـذلـك ينبغي أن يخضـع تغيير مـا بـالأنفس لمؤسسـات . وإلى الآن يحـدث مـا يحـدث عنـدنـا على أسـاس المصـادفـة ، دون تحـول ذلـك إلى علم منهّـج واضـح . لهـذا يظهر عـدم التوازن في المجتمع وبطء نموه حتى في المشاكل التي صارت خاضعـة للسنن بوضوح في مجتمعـات أخرى . والسبب ؛ أن الأمـة لم تحصّل بعـد ملكـة تغيير ما بـالأنفس ، ولم تملـك مـا يسـد فرض الكفـايـة . ونقص ملكـة التغيير ، مثـل نقص ملكـة البيـان والشعر ، فـلا يمكن تحصيـل ملكـة تغيير ما بالأنفس ـ كما لا يمكن تحصيل ملكة البيان والشعر ـ إلا بممارسة هـذا الفن ؛ وهـو النظر في سنن المـاضين ومـا حـدث لـلأمم من تغيير بطيء أو سريع خلال التاريخ . ونحن إلى الآن لا ندرس التـاريخ على هذا الأساس أو القصد ، وإن كان القرآن يلح علينا في ذلك .

وفقدان هذه الملكة مشكلة عامة في الأمة في مختلف طوائفها ، لأن هذا المرض عام إذ هو مرض مجتمع لا مرض طائفة معينة ولا مرض فرقاء . ولو أن هذا النظر صار بضاعة للمجتمع ، لتمتع به من يعيش في هذا المجتمع مهما اختلفت نظراتهم .

وهذا ما يفسر تنازع من هم أقرب لبعضهم في النظر ، في المجتمعات المتخلفة ، ومن هم على هدف واحد وأيديولوجية واحدة . بينما المجتمع ، الذي حصل لديه ملكة فن التغيير ، لا يبلغ النزاع فيه بين المتضادين في وجهات النظر ، ما يبلغ النزاع فيه بين المتفقين في وجهات نظرهم ، في الأمة التي لم تمتلك بعد مثل هذه الملكة . وواقع البلدان المتخلفة أو التي تسمى تفاؤلاً نامية ، أصدق شاهد لمن أمكنه أن يتأمل .

وابن خلدون لاحظ سنة التغير بوضوح في أعمار الدول ، وإن كان يفهم من تفسيره لها أنها حتم ، ولكن الأمر ليس كذلك ، ولا سيما وقد ملك الإنسان من وسائل التربية ما يطوع عملية صياغة الإنسان .

ولابن خلدون العذر في أن تكون عباراته غير دقيقة ، حيث جعل مرد ذلك إلى العوائد المترسخة ، التي يمكن أن تمثل ما نطلق عليه نتائج ما بالأنفس . قال في « فصل إن الدول لها أعمار طبيعية كما

للأشخاص » . وبعد أن تحدّث عن عمر الأفراد ، تحدّث عن عمر الدول فقال : « إن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال ، والجيل هو عمر شخص واحد ، والعمر الوسط يكون أربعين . وعلل ذلك بأن الجيل الأول ، لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها .. والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة . أما الجيل الثالث فينسون البداوة والخشونة كأن لم تكن فيصيرون عيالاً على الدولة . فهذه كما ترى ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها .

ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مرّ في أن المجد والحسب إنما هو في أربعة آباء وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعي كافٍ مبني على ما مهدناه من قبل من المقدمات . فتأمله فلن تعدو وجه الحق إن كنت من أهل الإنصاف .

وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مئة وعشرون سنة على ما مرّ ، ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر . بتقريب قبله أو بعده إلا إنْ عرض لها عارض آخر من فقدان الطالب فيكون الهرم حاصلاً مستولياً والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعاً ﴿ فَإذا جَاءَ أَجَلُهُم لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1] .

---

(١) المقدمة صفحة ١٤٨ ، طبع دار التحرير ، القاهرة ١٩٦٦ م .

وأطـال ابن خلـدون هـذا البحث ، ومهما يكن فـإن سبب ذلـك راجع إلى تغيير مـا بـالأنفس من النظر إلى الأمور . ولقـد وضح ذلـك فقال : « إذا كان الهرم طبيعياً في الدولة ، كان حدوثه بمثـابـة حـدوث الأمور الطّبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني . وقد ينتبه كثير من أهل الدولة ممن له يقظـة في السيـاسـة فيـأخـذ نفسـه بتلافي ذلـك ... ويحسب أنـه لحقهـا بتقصير من قبلـه من أهـل الـدول وغفلتهم ، وليس كـذلـك فـإنهـا أمور طبيعيـة للـدولـة ، والعـوائـد هي المـانعـة لـه من تلافيها » . وقـد بيّنّـا أن هـذا صحيح في آخر الأمر ، ولكن هـذا يمكن أن يُمنع حدوثه إذا أُخذ بأسبابه وسيطر عليها البشر ، ولا سيما قبل أن يحلّ الطّبع على القلوب . والـذي يقرب هـذا المعنى كـون ابن خلـدون نسب الأمر إلى العوائد . والعوائد قابلة للتغير أحياناً طبيعيـاً وأحيـانـاً صناعياً . وهذا ما خفي على ابن خلدون ، مما أمكن تفسير اتجـاهـه إلى الحتمية .

وقـال ابن خلـدون عن العـوائـد « ... وللعـوائــد منزلــة أخرى طبيعيـة ، فـإن من أدرك مثـلاً أبـاه وأكثر أهـل بيتـه يلبسـون الحرير والديبـاج ، ويتحلون بـالـذهب في السلاح والمراكب ، ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات ، فلا يمكنـه مخـالفـة سلفـه في ذلـك ، إلى الخشونة في اللباس والزّي والاختلاط بالناس ، إذ العوائد حينئـذٍ تمنعـه

وتقبح عليه مرتكبه . ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة ، وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه . وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي .

وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها إيماضة الخمود ، كما يقع في الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة تُوهِم أنها اشتعال وهي انطفاء .

فاعتبر ذلك ، ولا تغفل عن سرّ الله تعالى وحكمته في اطّراد تخريج وجوده على ما قدر فيه و ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ »[1] .

وما يقول عنه ابن خلدون : بأنه عوائد تمنع تلافي نتائجها ويعتبرها طبيعة أخرى بحيث يرمي من يخرج عنها بالجنون والوسواس ، ويضرب المثل في ذلك بلباس الذهب والديباج .. ولكن ما بالك بأنماط التفكير والنظر إلى الكون والحياة والمجتمع ، هذه الأنماط تتحول إلى عوائد ، والانتباه إليها أصعب وأدق وبلواها أعمّ . وهذا هو الذي حدث للفكر الإسلامي في جموده خلال العصور ؛ توارثوه كابراً عن كابر ، وكل من خرج عليه اتُّهم بالمروق .

---

(١) المقدمة ، ص ٢٥١

وابن خلدون يضرب المثل في الدولة التي قدر عمرها بثلاثة أجيال ، وكذلك المجد والحسب . فما بالك بدين عالمي يضم بين أحشائه الدول المتعاقبة ، حين ينظر إليه بهذا المنظار ، منظار أثر العوائد ، وما يحدث من تغيير على طول الزمن من غير أن يشعر الناس به ، ويتوارثها عشرات الأجيال مما يقلب كثيراً من الأمور عمّا كانت عليه سابقاً .

فإن كان ابن خلدون يقول : إن الجيل الثالث ينسى عهد الخشونة والبداوة كأن لم تكن ... فما بالك بنسيان أنماط التفكير المتفتح للحياة . فلو أن مجتهداً اجتهد مثل اجتهادات عمر بن الخطاب ، لما أمكن تحمل ذلك ، لا لأن الزمن لم يعد في حاجة إلى اجتهاد ، ولا لأن مقتضيات ذلك الاجتهاد لم تحدث .

وهذا التغيير البطيء ، يخفى على الناس كيفية حدوثه فيظنون أن الأمر لم يتغير ، ولكن يرون النتائج تغيرت فيقعون في حيرة . ولا يدركون تفسير ذلك .

ومن أكبر المشاكل التي تعترض المسلم في هذا الموضوع ، توهم الناس أنهم في أنماطهم الفكرية مثل ما كان عليه الناس في عهد الصحابة ، فيحاولون أن يروا في الرماد ناراً وفي الجمود حركة . فلا يميزون ما حدث من تغيير في الفكر والنظر ، فيقيسون أنفسهم بهم

دون شعور ، وهذه مصيبة كبيرة وعقبة كؤود ، تحول دون رؤية الأمراض التي تصاب بها المجتمعات .

وليس هنا مجال تفصيله الآن وإنما نشير إليه إشارة ، وقد ذكر ابن خلدون ذلك فقال : « ومن الغلط الخفي في التاريخ ، الذهول عن تبديل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام.، وهو داء شديد الخفاء . إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة ، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة . وذلك أن أحوال العالم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج واحد مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال .

وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، كذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ٨٥/٤٠] »[١] .

وهذا تأويل حديث رسول الله ﷺ في أوان ذهاب العلم ، والصحابي لم يكن يفهم على رسول الله ﷺ كيف يذهب العلم ، وكذلك لم يفهموا كيف نكون كالقصعة ، يتداعى عليها الأكلة . أما نحن اليوم فلا نفهم كيف يحصل العلم ، ولا كيف ننقذ القصعة المستباحة .

---

(١) المقدمة ، ص ٣٤

ذلك الصحابي لم يكن يقدر أن يتصور كيف يذهب العلم ، واليوم نتعب التعب كله في إثبات وجود علم يخرج المسلمين مما هم فيه من التّيه .

وكذلك حديث القصعة وتداعي الأكلة إليها ، فإن الصحابة عجزوا أن يفهموا كيف يمكن أن يتم ذلك ، وكل ما خطر في بالهم من تفسير للموضوع ، أن يكون سبب ذلك قلّة في عدد المسلمين ، حين قالوا أوَمِن قلّة يا رسول الله ؟ ولكن الرسول ﷺ بيّن أن العدد حين التداعي على القصعة يكون كثيراً . ولكن هناك شيء آخر يجعل الناس كغثاء السيل . إن الرسول ﷺ كان يرى المستقبل من خلال السُّنن ، ولم يكن كل الصحابة كذلك .

وليس هناك نظر اجتماعي تاريخي سنني ، مثل نظر الرسول ﷺ إلى المشكلة الاجتماعية . وكما يقول مالك بن نبي كان رسول الله ﷺ يقرأ التاريخ قبل أن يقع ، ويحذر من الوقوع فيه ، على أساس أن الأمر على نظام وسنن ، سواء في الوقوع في الجهل والقصعة المستباحة أو الخروج منها .

إن هذا النظر السُّنني هو ما يحتاج إليه شباب العالم الإسلامي ، إذ إن عدم وضوحه يحشر الأمور المختلفة في ميزان واحد ، بينما يبعد

الأمـور المتشـابهـة عن بعضهـا . فيقـع المرء في حيرة فيجعلنـا مرة مثـل الصحابة ، ومرة مثل الجـاهليين . ولا يـدرك مـا يميزنـا عن كل واحـد منهم من عناصر التخلف .

وقد بحث هذا مالـك بن نبي ، حين بحث عن إنسـان الحضـارة ، وإنسان ماقبل الحضارة ، وإنسان ما بعـد الحضـارة ، وبيَّن أن مشكلـة إنسان ما بعد الحضارة ، أعقد من مشكلة ما قبلها .

وأهميـة هـذا المـوضـوع هـو الـذي جعـل ابن خلـدون يقـول : « الذهول عن تبدل الأحوال الـذي هو داء دوي شـديـد الخفـاء لا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة » . وهذا هو الذي يجعلنا لا نقدر على كشف المشكلة التي نعيشها .

إنني أجـدني أشعر بضيق شـديـد من خفـاء هـذه الأمـور وعـدم وضوحها ، وأنها لم تصر بعد بضـاعـة مفهومـة متـداولـة . وهـذا الخفـاء يعوق حركة التقدم في الإصلاح لما يحيط بـه من غموض . فمـا لم نسيطر على خارطة تغيير ما بالنفس ، وما لم نتمكن بوضوح من سنّـة التغيير ، ومـا ينبغي أن نغيره ومـا ينبغي أن نحـذفـه ، ومـا ينبغي أن نضيف إليه ؛ سنظل نسير في طريقنا بعفوية لا قصد فيها ، ونحافظ على أفكار تعوق تقدمنا ، وننبذ أفكاراً ونعاديها بينما لا غنى لنا عنها . مثـال ذلـك

عدم مبالاتنا بعلم تغيير ما بالنفس ، هذا فضلاً عن إعراضنا عن عِبَر التاريخ التي توضح لنا ما ينبغي أن نغيره . فهنا نحتاج إلى علمين ، علم تغيير ما بالنفس ، وعلم آخر وهو ما نميز به ما ينبغي أن نغيره مما ينبغي أن نبقيه . فهذا النقص هو الذي يجعل سير حركة المسلمين بطيئاً ، مثقلاً بالآصار والأغلال التي تحول بينهم وبين أن يروا المستقبل في ضوء الماضي . إن الحيرة نتيجة الغموض ، والحيرة هي البرزخ الذي نسير فيه في أيامنا هذه .

إن اندفاع الإنسان للحركة الجدية ، مرهون باقتناعه أن لكل مشكلة طريقة لحلّها . فكذلك المسلمون لا يمكن لهم أن يتحركوا بجدية لتغيير واقعهم ، ما لم يقتنعوا أن مشكلتهم تخضع لقوانين وسنن .

أما إذا بقي لديهم شعور أن المشكلة لا تحل إلا بالمهدي ، أو بأن الزمن شارف على الانتهاء ، فإن المشكلة تبقى دون حلّ ، بل تزداد تعقيداً .

ربما يتضايق من هذا الوصف بعض القرّاء الكرام ، وربما شعروا أنني أستخف بذكائهم ، وينفون عن أنفسهم انتظار المهدي ، أو أن يروا أن الزمن أشرف على نهايته ، ويدعون أن هذا إيمان العوام . ولكن ما الخطة التي عند هؤلاء القوم الكرام لتغيير ما بأنفس هؤلاء العوام ،

حتى يرتفعوا عن مرتبة العوام إلى مرتبة من يشعرون أن سعيهم ليس سدى ولا عبثاً ؟

وما لم نتمكن من معرفة تغيير ما بالنفس ، ومعرفة ما ينبغي أن نغيّر كمّاً وكيفاً ، فسنظل ننتظر المهدي فعلاً وإن نفينا عن أنفسنا ذلك نظرياً . إن الإيمان بفكرة ما ـ بشكلٍ منحرف ـ يؤدي إلى مواقف سلبية .

ما زلنا في بحث تفاوت ما في النفس بالنسبة لرسوخه وهنا أريد أن أوجز جانباً من هذا الموضوع عما بالنفس . إن الفكرة هي التي بالنفس ، ولكن بعض الأفكار التي بالنفس ، لا يشعر بها صاحبها . فأفكار الإنسان ليست حاضرة في كل لحظة ، بل منها ما يحضر عند تداعي الأفكار ، ومنها ما يحضر بالتذكر ، ومنها ما لا يتمكن صاحبها من استحضارها مهما كدّ ذهنه . ومع ذلك تدخل هذه الأفكار المنسية في توجيه سلوك الإنسان كما سبق أن أشرنا إليه .

وهنا يمكن أن ننظر إلى الفكرة على أنها تمرّ في مراحل لدى دخولها نفس الإنسان ، وذلك من أول ما تصل إلى النفس إلى أن تتغلغل فيها وتترسخ . والفكرة بذاتها لم تتغير ولكن الذي تغير مقدار تغلغلها في النفس ، ومقدار نتائجها في الواقع . ويمكن أن نمثل الفكرة

بالإنسان ولو لم يكن التشابه كاملاً . فالإنسان في مرحلة ما يكون جنيناً ، ثم يكون طفلاً ، ثم فتى ، ثم كهلاً ... إلخ .

ففي كل مرحلة يسمى باسم وهو في الأصل واحد . وكذلك الفكرة تمرُّ بمراحل من نظرية وظن إلى إدراك وعلم فإلى سلوك وخلق ... إلخ .

إن الفكرة حين تتعمق في النفس تكون مصدراً للأخلاق ، وما الخلق إلا السلوك الناشئ عن أفكار متعمقة ثابتة راسخة في النفس .

وينبغي أن يلاحظ أن الفكرة يمكن أن يوحى بها ، فتكون مصدراً للأخلاق دون أن تمرَّ بالوعي الشعوري ، كما عند الأطفال والعوام . وحين نفهم كيف يحدث هذا وما وسائل ذلك على أساس واضح ، فمثل هذا الفهم هو الذي يجعل حماية الأخلاق بل إنشاءها بواسطة العلم ممكناً ، لأن الخلق سلوك ظاهر ، يكمن وراءه دوافع رسخت في نفس الإنسان ، قد ننتبه إليها وقد لا ننتبه . ولن يصير ذلك علماً ما لم ننتبه إلى ذلك ونحدده . وإن الذين يظنون أن الأخلاق لا تخضع للعلم ، وأن العلم لا يؤثر فيها ، لا يمكن أن يعترفوا بإمكان حماية الأخلاق فضلاً عن إنشائها ، كما أنهم لا يكونون شاهدوا صلة العلم بالأخلاق .

وقد تكون الفكرة ـ كفكرة أولية ـ موجودة عند الإنسان ، مثل الفكرة الموجودة عند الإنسان عن مشاهدة سقوط الأجسام إلى الأرض . فهذه كظاهرة ، يدركها كل الناس ، بل ربما لا يخطر لهم أن يفكروا فيها ، وتذكيرهم بها يكون غريباً عليهم . فأصل الفكرة موجود عند كل فرد ، ولكن فكرة العالم الفيزيائي عن سقوط الأجسام غير ما عند الإنسان العادي . فالعالم يمكن أن يرى في الموضوع عنصر الزمان والمكان والسرعة والكتلة وآثارها ، ويمكن أن يحسب قوة السقوط والاختراق ، ويمكن أن يبدع على أساسها أعمالاً مدهشة كبناء الجسور والطائرات والقذائف . ويمكن أن يمثل سقوط الأجسام ، ومعرفة كل فرد بأصل الفكرة ، وتفاوتهم في معرفة دقائقها وقوانينها ، وما يترتب على ذلك ، يمكن أن يقارن هذا ، بفكرة الأخلاق في أصل المعرفة المجملة من قبل كل الناس . فكل الناس يسمعون ويتكلمون بكلمة الأخلاق ، ولكن ما يمكن للعالم أن يكشف من قوانين وسنن نشأة الأخلاق وقيمها ـ كما فعل (هادفيلد) في كتابه : (تحليل نفسي للخلق) ـ إن معرفة هذا الإنسان لسنن الأخلاق ، لا يمكن أن تقارن بمعرفة الإنسان العادي . وليس معنى هذا أن الإنسان العادي لا يمكن أن يملك أخلاقاً متينة . لا ليس هذا المراد ، ولكن الإنسان العادي ليس في طوقه أن يحمي الأخلاق حماية علمية ، ولا يمكن أن يملك

ذلـك ، كما يمكن أن يكـون بين الرجلين في المعرفـة بـونٌ لا يمكن أن يقارن بينهما ، بل ما يتطلع إليـه الإنسـان العـالم من الأمل في المستقبل لتسخير هـذه السنن لا يتيسر لغيره . وأكثر النـاس عنـدهم أصـلٌ لفكرة ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْـدِ أَنْفُسِكُم ﴾ [آل عمران : ٣/١٦٥] . ولكن هـذا المفهـوم الذي عندهم عن الآيـة غير راسخ ، كما أنـه غير واضح ، وهـذا لا أثر لـه على سلوكهم .

وهنا نذكِّر مرة أخرى بحديث زياد بن لبيـد في دفع الشبهـة ممـا يمكن أن يقـال هـل كان الرسـول ﷺ يعلم هـذا . إن تـأمـل حـديث زيـاد بن لبيـد يجيب عن هــذا السؤال كما يجيب حـديث القصعــة . ولا شــك أن الصحــابــة كلهم لم يكـونـوا في مستـوى واحــد في هــذا الموضوع . كما أن تحول الخلافـة إلى ملـك عضوض وملـك جبريـة ، إنمـا كان لضياع هذه السنن ، أو لأنهـا تحولت إلى معرفـة عـاميـة ، بـدل أن تظل معرفـة علميـة في صـدور الـذين أوتوا العلم . وهـذا مـا قـال عنـه الرسول ﷺ : « يحدث هذا أوان ذهاب العلم » . إن هذا الأصل الـذي يحتوي عليـه الحـديث ، ضروري ونـافع في عـامـة البحوث ، لـذا أشعر بضرورة الإشارة إليه أثناء البحث في كل موضوع يحتاج إليه .

وقبـل أن نختم البحث أنبّـه إلى مـا سبـق ذكره من أن كـلام ابن خلدون عن العوائد ، يوهم أنها غير خاضعة لسلطان الإنسان . والحقيقة

أن هذه العوائد ، تنشأ ثم تعمل عملها في حياة الإنسان والمجتمعات وفق سنن وقواعد ، إذا عرفها الإنسان استطاع أن يتحكم بالعادات ويصرفها وفقاً لما يريد .

وموضوع العوائد ليس مثل الهرم الذي يصيب الإنسان . فالهرم الذي ذكره الرسول ﷺ : أنه لا دواء له هو هرم الإنسان ، لأن هرم المجتمعات له دواء يمكن علاجه بعد أن يقع ، كما أنه يمكن منعه قبل وقوعه ، حين يسيطر الإنسان على سنن رسوخ الفكرة وسنن التغيير .

وفن تغيير ما بالنفس مهمة الإنسان كما بيَّنا في هذا الكتاب .

وشيء آخر نريد التنبيه إليه ، وهو أن العلم له مقام كريم في القرآن ، وحين جعلنا عنوان هذا الفصل « ما بالنفس يتفاوت في الرسوخ » كان مستندنا في ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ ... ﴾ [آل عمران : ٣/٧] .

إن لرسوخ العلم ميزة خاصة من المعرفة ، أو كيفاً خاصاً للعلم ، به يعطى الإنسان سلطاناً لا يتيسر لمن لم يرسخ في العلم . وإذا فهمنا أن العلم قابل للزيادة والرسوخ ، زال تخوفنا من العلم ، وزالت الفكرة التي طالما ملأت رؤوس المسلمين : أن العلم لا يؤدي إلى فهم الحق ،

ولا يحل مشكلة المسلمين . وما يقال عن العلم والأخلاق والثقافة من أنها متغايرة ، سببه تفاوتٌ في رسوخ العلم وزيادته . وأصل التشويش الذي يحدث ، هو أن السلوك في مرحلة من مراحل العلم ، لا يتكيف مع العلم الذي حصل كالذي ﴿ أَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣/٤٥] ، ولكن هذا ليس عيباً في العلم ، وإنما هو نقص في ترسيخ العلم ، ونقص في صاحبه ينبغي أن يكمله بالزيادة منه ، والترسُّخ فيه .

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : ١١٤/٢٠] .

والمُسْلِمُون حين بحثوا الإيمان والإسلام ، وهل الإيمان قولٌ وعملٌ أم لا ، إن هذا البحث أيضاً راجع إلى المشكلة نفسها التي هي علاقة السلوك بالمعرفة ، وهذه العلاقة درجات على حسب رسوخ العلم :

﴿ قُلْ لَمْ تؤمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُم ﴾ [الحجرات : ١٤/٤٩] .

وعدم التنبُّه إلى تفاوت رسوخ العلم وزيادته ، هو الذي أدى بالبعض إلى القول : إن هناك علماً ظاهراً وعلماً باطناً ، أو علماً عادياً وعلماً لَدُنِّيّاً ، وإنما هو علم ناقص أو علم لم يرسخ ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ .

القرآن والعقل والسنن

كيف تلقى السُّنن القبول عند المسلمين

إن كل سنّة ومثال في التغيير ينبغي أن يكون مُسْتَنِداً إلى القرآن الكريم ، لتكسب السُّنّة فاعليتَها عند المسلمين .

إذ من الأمور التي تخص المسلمين في مشكلة تغيير ما بالنفس ، ولا سيما فيما يتعلق بالسُّنن وتطبيقاتها ، الحاجة الماسة التي ينبغي أن يراعيها من يمارس مشكلة التغيير أن لا ينسى في لحظة واحدة من اللحظات ، ضرورة ارتباط السُّنن والأمثلة والتطبيقات بالقرآن الكريم والسُّنة النّبوية الشريفة ، ومن غير أن ينسى أيضاً سيرة السلف الصالح ماأمكن ذلك . كما عليه أن يكون حاذقاً في ربط الموضوع بهذه المصادر ربطاً وثيقاً ، وأن لا يمل من التذكير بكل مناسبة بمرجع سنن المجتمعات : من آيات القرآن في الكتاب العزيز ، والسُّنة الصحيحة ، وتطبيقات السلف الصالح . وفي هذه المصادر لمن أحسن التعرُّف عليها ، مادة غزيرة تدعمه بما لا يشعر معه المصلح أنه في حاجة إلى مزيد . ولقد تنبَّه المستشرق صاحب كتاب حاضر العالم الإسلامي إلى ذلك .

والأمر الذي يجعل هذا الارتباط ضرورياً ـ ولا سيما في المرحلة الأولى ـ هو الحالة النفسية التي يعيشها المسلمون الآن ، والتي تحول بينهم وبين تذوق معنى سنّة الله في خلقه .

بل إن الالتباس فيه حاصل ـ بوعي منه أو بغير وعي ـ إن لم يسبقه أو يلحقه ما يدعمه من الكتاب الكريم والسُّنة النَّبوية .

والذي يحول دون استفادة المسلمين من سنن التغيير وتطبيقاتها ، أن الذين يبحثون هذه الأمور ويمارسونها ـ إن كان هناك من يمارسها ـ لا يستطيعون ربطها بمبرراتها من كتاب الله وسنّة رسوله . وذلك إما لجهلهم بالكتاب والسُّنة ، أو لاعتقادهم أنَّ هذه السُّنن لا يعترف بها القرآن ولا السُّنة . بل ربما استخدموا هذه السُّنن لعزل المسلمين عن عقيدتهم بسبب جهلهم لحقائق القرآن أو بسبب تجاهلهم لها . ولكن مالنا ولهؤلاء الذين شأنهم هكذا ، فما بال أولئك الذين يتعلقون بالقرآن والسُّنة بكل ما أوتوا من حماس إيماني ، متوارث خلال العصور المديدة ! إن هؤلاء لهم مشكلة أخرى معاكسة لمشكلة أولئك ، فهم لا يعيرون اهتماماً للبحوث التي تعنى بتغيير المجتمعات ، لا لأنهم لا يشعرون أن محيطهم لا يحدث فيه تغيير ، بل لأنهم إلى الآن لا يمكنهم أن يدركوا ارتباط هذا التغيير بالسُّنن النفسية والاجتماعية ، وأن إدراك هذه السُّنن يمكّن من السيطرة على التغيير ، سواء في إيقاف

التغيير أو إبطائه أو تغيير وجهة سيره في الجانب الذي يريدون . فمن هنا لا يخطر لهم أن يضرفوا جهداً في هذه الدراسات ، فضلاً عن أن يروا مواطنها وأصولها من الكتاب والسُّنة .

وأهم شيء يحث عليه القرآن ومن أجله أنزل الله الكتب وأرسل الرسل هو تغيير المجتمعات . فلهذا كان الإلحاح في القرآن لينظر الناس إلى سنن الذين خلوا من قبل . والسُّنَّة (القانون) ، وهي التي على أساسها ترتفع وتنخفض المجتمعات ، وعلى أساسها يكافئ الله ويعاقب . وعلى البشر أن يتفهموا هذه السُّنن ، حتى ينالوا رحمة الله ويبتعدوا عن انتقامه . لهذا يقول الله تعالى : ﴿ وإنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأوَّلِيْنَ ﴾ [الأنفال : ٣٨/٨] ، أي وإن يعودوا لأعمالهم الفاسدة الناشئة عن تصوراتهم ، واعتقاداتهم الخاطئة ، فقد مضت سُنَّة الله في نزول العقاب على أمثال هؤلاء .

ويقول الله تعالى أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأوَّلِيْنَ ☆ وَمَا يَأْتِيهِم مِنْ رَسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ☆ كَذَلِكَ نَسْلُكُه في قُلُوبِ الْمُجْرِمِيْنَ ☆ لا يؤمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأوَّلِيْنَ ☆ ولَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ☆ لَقَالُوا إنَّما سُكِّرَتْ أبْصَارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٥/١٠ـ١٥] .

في هذه الآيـات بيّن الله تعـالى كيف أنّ مـا بـأنفس هؤلاء القوم من الأفكار ، راسخـة ثـابتـة وجـامـدة ، وكيف أنّ نظر هؤلاء محـدود جداً ، وأن هـذه المحـدوديـة في النظر تحول بينهم وبين أن يكون محتملاً عندهم وجود طريقة للحياة أفضل مما هم عليه .

وهذا الجمود في النظر من غير برهان ولا هدى ولا كتـاب منير ، يكون قوياً وصلداً كلما جهل الإنسان المواقف التي مرَّ بها البشر سابقاً أي سنّة الأوّلين .

ولو أن هؤلاء كان عنـدهم علم بـأحوال المـاضين ومـا حـدث لهم ، ومـا كان بـأنفسهم من أفكار ، وكيف ظهرت آثـارهـا على مرّ الـزمن ، لكانوا في جمود أقل ، وغرور غير بالغ حدّ اليقين ، ولكانت قدرتهم على تـأمل مـا جـاءت بـه الرسل أوفر . ولكن الجهـل الـذي أطبـق عليهم ، أعجـزهم أن يروا إمكان وجـود وضـع أفضـل ممـا هم عليـه في الفكر والعمل ، وفي الغاية والوسيلة .

وتعتبر سُنّة الماضين حسب نهج القرآن دعماً للبشر ، ومساعـداً لهم في الابتعاد عن الوقوع في الخطـأ مرة أخرى . وكل التجـارب البشريـة العريقة في القدم ، والموزعة على أقطار البسيطة ، تراثٌ من العِبَر لكل الناس إذا أرادوا أن ينظروا إليها . وكل الذين لا يتذكرون ماوقع فيـه

المـاضـون من أخطــاء ، يكـونـون مُعَرَّضين لإعــادة دفــع ثمن جهلهم اجتماعياً ، في حياتهم الدنيـا ، كما هم معرضون لخسـارة النفس في الآخرة حين يقولون :

﴿ لَـوْ كُنَّـا نَسْمَـعُ أَوْ نَعْقِـلُ مَـا كُنَّـا فِي أَصْحَـابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠/٦٧] .

ومعنى سُنَّة الأولين في الآية التي كنّا ذكرناها ...

﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وقَـدْ خَلَتْ سُنَّـةُ الأَوَّلِينَ ☆ وَلَو فَتَحْنـا .. ﴾ : غير مختص بالأولين فقط ، بل هذه السُّنَّة تشمل كل الذين كانوا قبلنـا ، حتى الـذين جـاؤوا بعـد نزول هـذه الآيـات ، كما تشملنـا نحن أيضـاً . وسنصير يوماً من سُنَّة الأولين لمن سيأتون بعدنا .

والبشر في سيرهم ، تتراكم الأمثلـة والنماذج أمـامهم ليعتبروا بهـا ، ويستفيـدوا منهـا . فلهـذا يـدخـل في سُنَّـة الاعتبـار ، الأحـداث التي حدثت بعد نزول القرآن ، خلال هـذه العصور في كل أقطـار الأرض ، سواء في المجتمعات المؤمنة ، أم الكتابية أم الوثنيـة .. وإدراك مثل هـذه السُّنن ، وعلاقـة مـا بـالأنفس بمـا يحـدث للأقوام ، هو الـذي جعل ولز يقول :

« إن مصـائب الحرب العـالميـة ، ومـا نـزل بـالنـــاس من دمـــار

وما حلّ عليهم من عذاب ، كانت الجزاء الوفـاق لما يحمله النـاس من أفكار خاطئة »[1] .

والقرآن الكريم في وصفه للمجتمع الإسلامي في المدينة ، وتـذكيره بسنن الذين خلوا من قبل يقول :

﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَـافِقُونَ والَّـذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ والْمُرْجِفُونَ في الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّـكَ بِهِم ثُمَّ لا يُجَـاوِرُونَـكَ فِيهـا إلاَّ قَلِيلاً ☆ مَلْعُونِينَ أيْنَما ثُقِفُوا أُخِـذُوا وقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ☆ سُنَّـةَ اللهِ فِي الَّـذِينَ خَلَـوا مِنْ قَبْـلُ وَلَنْ تَجِـدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٣٣/٦٠-٦٢] .

إنّ المجتمع الـذي يستطيـع أن يتغلب على المخـادعين ، والـذين لم تطمئن قلوبهم ، والذين يشيعون روح الهزيمة في المجتمع ؛ إنَّ هـذا المجتمع يملك مقومات الاستمرار ... ﴿ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيها إلاَّ قَلِيْلاً ﴾ : أي أنَّ هـؤلاء مطرودون ، ولن يتمكنـوا من إيقـــاف السير ، ولن يـؤثر إرجافهم .. بل سينفون من المجتمع ويقذف بهم بعيداً .

إن للصراع في المجتمـع سُنناً ، ومن لا يتبـع السُّنن يخرُّ صريعـاً .. ولهذا يعقب الله على وصف حال مجتمع المدينة بقولـه : ﴿ سُنَّـةَ اللهِ فِي الَّـذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِـدَ لِسُنَّـةِ اللهِ تَبْـدِيلاً ﴾ . يـذكر النمـوذج

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ، ص ١١٥٠ - ١١٦٠

الحاضر في المدينة ، ويشير إلى الذين خلوا من قبل ، ثم يضع القاعدة بأنَّ هذا الحدث تابع لسُنَّة الله ، ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً .

إن الله تعالى حين يعرض نموذج المجتمع المدني ، لا يعرضه كحدث خاص بمجتمع المدينة المنورة ، بل إن هذا الذي حدث في المدينة ، نموذج من النماذج التي تتبع لقاعدة : ﴿ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ . فكل من يريد أن يبني مجتمعاً ، أيّاً كان هذا المجتمع ، وأيّاً كان مثله الأعلى ، إن لم يسر على السُّنَّة ، وإن لم يعرف عوامل الهدم والبناء ، فلن يتمكن من إقامة مجتمع .

يقول كارليل في حديثه عن الرسول ﷺ - وإن كان هدفه غير مانريد هنا الآن - قال :

« لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع ... فواأسفاه ماأسوأ مثل هذا الزعم .

وبعد ، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ، أن لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء ... ولعل العالم لم ير قط رأياً أكفر من هذا وألأم ، وهل رأيتم قط معشر الإخوان رجلاً كاذباً

يستطيع أن يوجد ديناً وينشره .. عجيب والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب ! »[1] .

وفي العصر الحاضر نموذج من المجتمعات التي تقام حديثاً ، بصرف النظر عن قيمة مثلها الأعلى ، ولكن حتى هذا المجتمع ، لا يقوم إنْ لم يملك الفهم والعمل الكافي لحماية نفسه وتطهيرها من عناصر التخريب .. ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِيْنَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ .

وحين يتعلم الإنسان كيف يتعامل مع السُّنن ، يستطيع أن يستفيد من أخطاء ومن صواب الكافرين ، فضلاً عن المؤمنين ، وذلك إذا تمكن أنْ يصل إلى درجة التعامل مع السُّنن مباشرة دون أن تتدخل عداوة أو صداقة من سخر هذه السُّنن .

إن هذا المستوى من الإدراك ، لا يصل إليه إلاَّ من كانت منافذ الفهم وإدراك الصواب لديه مفتوحة ، حيث لم يتوصل التقليد إلى إغلاقها . وهذا ما يحثنا الله سبحانه وتعالى على فعله حين يصف لنا أولي الألباب : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ☆ الَّذِيْنَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

---

(١) من كتاب الأبطال وعبادة البطولة ، ص ٤٩ـ٥٠

أحْسَنَهُ ☆ أولَئِكَ الَّذِيْنَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الألْبَابِ ﴾ [الزُمر : ٣٩/١٧ـ١٨] .

والقرآن الكريم يعرض لنا الأمثلة ممزوجة بالسُّنن ، بالواقع المعاش ، بالعبر الماضية فانظر مثلاً إلى قوله تعالى :

﴿ وَأقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِم لَئِنْ جَاءَهُم نَذِيْرٌ لَيَكُونُنَّ أهْدَى مِنْ إحْدَى الأُمَمِ ☆ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيْرٌ مَا زَادَهُم إلاَّ نُفُوراً ☆ اسْتِكْبَاراً فِي الأرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيْقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلاَّ بِأهْلِهِ ☆ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ سُنَّةَ الأوَّلِيْنَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيْلاً ☆ أوَلَمْ يَسِيْرُوا فِي الأرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِم ﴾ [فاطر : ٣٥/٤٢ـ٤٤] .

في هذه الآيات يعرض الله لنا :

١ً ـ الدعوى : حالة قوم يؤكدون أنهم سيكونون أهدى لو جاءهم نذير ، ولما جاءهم النذير لم يكونوا عند قولهم .

٢ً ـ سبب إخلافهم الوعد : الاستكبار والمكر السيئ .

٣ً ـ مجال الكشف : ويمكن رؤية هذا الارتباط بين هذه الحالة وسببها ، بالنظر إلى تاريخ الأولين خلال أحداث التاريخ لمن يسير في الأرض وينظر .

٤ً ـ ثبات السُّنة : ثم يبين أهمية السُّنن مجردة عن الأمثلة التاريخية حتى لا يتحول التاريخ إلى سنة ، لأن التاريخ يتبدل ، والسنة لا تتبدل . وفهم هذه النقطة حصانة للسُّنة من الضياع .

٥ً ـ مصدر التاريخ والسُّنة : هو السَّير في الأرض ، والنظر إلى العواقب ، لأن ذلك يكسب الإنسان معرفة بالتاريخ ، كما يكسبه قوانين الحياة وسُننها .. وهذا الأمر لا يتحقق بمجرد الدرس ، وإنما بالسير والكشف أيضاً .

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى أن تحقيق بعض أوامر الله ، لا يتم إلا بالبحث خارج القرآن بأمر من القرآن الكريم .

ومثل هذه الحالة الاجتماعية التي يعرضها الله تعالى هنا ، مثل آخر في القرآن يبين فيه حالة معينة من الدعوى العريضة والعجز الفاضح :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُم إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُم وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ☆ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُم إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ

طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا : أَنَّى يَكُونُ لَـهُ الْمُلْـكُ عَلَيْنَـا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِـالْمُلْـكِ مِنْهُ وَلَمْ يؤتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَـاهُ عَلَيْكُم وَزَادَهُ بَسْطَـةً فِي العِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يـؤتِي مُلْكَـهُ مَنْ يَشَـاءُ وَاللهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ ... ﴾ [البقرة : ٢/٢٤٦_٢٤٧] .

ولما قـال لهم مـوسى ﴿ اسْتَعِينُـوا بِـاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُوْرِثُها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِيْنَ ﴾ قـالوا لـه : ﴿ أُوذِينـا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُم أَنْ يُهْلِكَ عَـدُوَّكُم وَيَسْتَخْلِفَكُم فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩/٧] .

قالوا له هذا القول ، أي كأنهم قـالوا : ليس في مجيئـك فـائـدة ، فـالأذى لم يَـزَلْ عنّـا بمجيئـك ، فيقـول لهم مـوسى : هنـاك أمر أهم من هـلاك عـدوكم واستخـلافكم في الأرض ، وهـذا الأمر الأهم هـو كيف ستعملون حين يستخلفكم ؟ هذا الذي لا تعملون حسابـه الآن ... هـذا الذي لم تُخْتَبَروا بهِ بعدُ .. ولقد قال الله تعالى :

﴿ فَهَـلْ عَسَيْتُم إِنْ تَـوَلَّيْتُم أَنْ تُفْسِـدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُـوا أَرْحَـامَكُم ☆ أُولَئِـكَ الَّـذِيْنَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَـأَصَمَّهُم وَأَعْمَى أَبْصَـارَهُم ☆ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها ﴾ [محمد : ٢١_٢٤] .

إن الذين لا ينتبهون إلى تلـك النقـائص الاجتماعيـة لا يمكنهم أن

يتفادوها قبل وقوعها ، إلا إذا كانوا يدركون أسبابها وسننها . وإذا فاجأتهم نتائج تلك النقائص يظلون حيارى لا يجدون مخرجاً ، وليس أبلغ من وصفهم بقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُم وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم ☆ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ .

إن الاستكبار الذي جعله الله سبباً لأن يحيق بهم المكر السَّيئ في الآيات التي سبق أن ذكرناها ، إنما هو ماذكره الله هنا من العمى والصمم ، والأقفال على القلوب ، لأن الاستكبار حالة نفسية ، أي فكرة خاطئة بالنفس ، تجعل الإنسان مستكبراً ، يقول ما لا يفعل ، ويَدَّعي ما لا يقدر عليه . كل ذلك ناشئ من التقدير الخاطئ للواقع والسُّنن ، ناشئ من نظر ذاتي محدود .. والإنسان ذو الفهم الصحيح والإدراك الجيد لوقائع التاريخ لن يكون مستكبراً ، إذ إن الاستكبار إنما منبعه فراغ في الفهم ، وفراغ في إدراك الحقيقة .

إن المستكبر يتصف بالبعد عن النظر الموضوعي[1] ، وهذا البعد مبعثه الغرور ، الذي هو محتوى نفسي خاطئ .

ومشكلة الاستكبار تلقى اهتماماً كبيراً في القرآن ، لأن الفارغ

---

(١) النظر الموضوعي : أن ترى الشيء أو الحدث كما هو عليه . والنظر الذاتي : أن ترى الحدث أو الشيء كما تريده أنت ، ولا يشترط أن يكون كما هو في الواقع ، وإنما كما يتخيله الذهن ، كما كان الناس يتخيلون دوران الشمس حول الأرض .

عن فهم الحقيقة يكون مستكبراً حين يملك ، ويذل إن زال عنه الملك . والمؤمن لا يكون مستكبراً إن ملك ، ولا ذليلاً إن أصابته مصيبة . وهذا لا يتأتى إلا عن الفهم الموضوعي والعلم ، لا لمجرد وصفه بالإيمان ، لأن الإيمان ثمرة العلم والفهم . لهذا لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

إن الاستفادة من السُّنن وملاحظة الأمثلة والأحداث ، تقدم للناس بصراً ومعرفة نظرية وعملية ، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم ، أو تنقذهم إذا وقعوا فيها ، أو على أقل تقدير ، تكسبهم صلابة موقف من يدرك السُّنة ، لأن موقف من يرى السُّنن يختلف عن نظر وموقف من يجهل مصدر الأحداث . فإن حيرة وخوف من يجهل ، غير بصيرة من يعلم ، وغير طمأنينته . فإن من يجهل يطمئن حيث لا طمأنينة ، ويقلق حيث لا قلق ، ويعيش في حيرة من جراء المصائب التي تنزل به ولا يعرف مأتاها إلا ظناً وتَخَرُّصاً .. أما من يعلم وإن كان يعجز عن تغيير كل شيء مرةً واحدة ، فإنه يعرف أين يضعُ القلقَ ، وأينَ يضعُ الطمأنينةَ ، ولا يصابُ بالْحَيرة ، وإنما يقوم بما يقوم به من عمل فيما يُجْدِي دون أن يَحْقِرَ ما يقوم به من عمل . ولا يطمعُ في إزالةِ الجبالِ في ساعة ، ولا يحقر من جهده القليل الذي يبذله مما يقرب إلى الهدف ، كمن يمشي على الخريطة والبوصلة ، لا كمن يضرب في تيه الأرض دون معرفة .

إن إدراك السُّنن والتعامل معها ، هو الذي يجعل الإنسان يمشي سوياً على الأرض ، ومن يجهلها فهو المكب : ﴿ أَفَمَنْ يَمشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢/٦٧] .

إذا تذكرنا شأن شيع الأولين ، وأنه لو فُتحَ عليهم بابٌ ﴿ مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيْهِ يَعْرُجُونَ ☆ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ . قد سبق أن ذكرنا محدودية هؤلاء في الفكر ، وجمودهم على ماهم عليه ، وأنه لا يخطر في بالهم احتمال طريق أفضل للوصول إلى غاية أسمى .

فإذا وجدنا اليوم حال المسلمين في الجمود ، والغرور ، والمحدودية في النظر ، واعتقادهم أنه لا يمكن أن يكون هناك صواب إلا عندهم . وكيف لا ! وهم أهل الحقيقة ، وعلم اليقين من الكتاب والسُّنة المحكمة !

هنا تبرز المشكلة بكل ثقلها ، وبكل ما تحمل من خلط .

لندع ثقل المشكلة الآن ، ولننظر إلى أن هذه الحالة الاجتماعية ، تنشأ عن مفاهيم ونظرات معينة ، تصيب المجتمعات وتشمل البشر كبشر .

فإذا وجدنا تشابهاً بين المسلمين اليوم ، ووضع أمم سابقة لهم ،

علينا أن نعلم أن سُنّة الأولين قد انطبقت علينا . كما أنه ينبغي أن لا يسيطر علينا حبنا لذواتنا وأنفسنا ، فيعمينا عن إدراك ، كيف يمكن أن ينطبق علينا ما انطبق عليهم .

فإذا رأينا أنفسنا في جحر الضّب ، ونفعل مثل ما فعل الأولون ، حذو القذة بالقذة شبراً بشبر ، فعلينا أن لا نستغرب أن يصيبنا ما أصابهم ، لأن السُّنّة التي لا تتبدل ، لا تميز بين السابقين واللاحقين ، وإنما تعمّهم جميعاً : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [النّساء : ١٢٣/٤] .

إن الاستكبار مَنَعَ الأولين من إدراك الواقع . وهو يمنعنا الآن . نحن نجمع الصفات المتضادة ، نحن مستكبرون وأذلة أيضاً في آن واحد . وليس غريباً أن يجتمع الوصفان . ففي صحيح مسلم بيّن الرسول أن من الذين لا ينظر الله إليهم ، « العائل المستكبر » ، فقد جمع بين العيلة والاستكبار . وكذلك نحن عالة مستكبرون ، لا نظن أن أحداً يملك شيئاً من الحق له قيمة ، ونحن عندنا الحق كله . ومع ذلك لا نستطيع أن نخفي ذلّتنا وهواننا . وهذا الهوان الفاضح هو الزاد الوحيد الآن ، لنجعل المسلم ينتبه . فهذا الذُّل هو المسك الواضح للبدء في طريق الشفاء ، لأنه لا يمكن بَدْء البحث إلا من نقطة نسلم

بها . ولا يمكن أن ينصت المسلم إلا عند هذه النقطة ، هذا إن لم تأخذه العزة القعساء وعنجهية الكبرياء فتسدّ عليه منافذ التأمل والانتباه .

إن ثقل المشكلة التي أشرنا إليها ، يتخفى في مخبأ مكين آخر وهو ، صعوبة أن يفهم ويتذوق ، كيف أن صاحب الكتاب والسُّنة ، وعلم الحقيقة واليقين ، يمكن أن يأتيه يوم ، لا يجديه الكتاب والسُّنة ، ولا ينفعه علم اليقين الذي كان عنده يوماً ما . إن سليمان لما قضى عليه الموت بقي هيكلاً قائماً وبقيت الجن في العذاب المهين ، إلاَّ أنَّ دابَّة الأرض أكلت مِنْسَأتَهُ التي كان يتكئ عليها فخرَّ . والعالَم الإسلامي فَقَدَ روحه ، وظل متكئاً على عصاه ، ولكن العهد الاستعماري قام بمهمة الدابة ، فخرَّ هذا العالَم وهو لا يكاد يصدق ما حدث له وكيف حدث .

إن ثقلَ المشكلة ، في إقناعِ المسلم كيفَ فَقَدَ الكتاب والسُّنة ، وفقَدَ علمَ الحقيقةِ وعلمَ اليقين ، كما فقَدَ مواعيدَ الكتابِ والسُّنةِ بالنصرِ والتأييد . كلُّ ذلك أزالَ يقينه ، فتغيَّرتْ أمامَه الدنيا ، واختلطت عليهِ الأمور ، وتداخلت الكبرياء بالهوان ، ومواعيد النصر بالهزائم المتوالية .

ونحنُ لا نزالُ في بحث أن السُّنّة (القانون) ، لا تجدي عند المسلم

إنْ لم تستند إلى الكتاب والحديث . وهنا نريد أن نستأذن كبرياء المسلم ، أن يتأمل معنا حديثاً للرسول ﷺ .

قاعدة هامة :

إن هذا الحديث من المرتكزات القيمة لفهم هذه السُّنة العجيبة ، التي أعي المسلمين السابقين واللاحقين ، فهمُ حقيقتها . هذه السُّنة وردت بوضوح صارخ في حديث صحيح للرسول ﷺ . عن زياد بن لبيد أنه قال : « ذكر النَّبي ﷺ شيئاً فقال : وذاكَ عندَ ذهاب العلمِ . قلنا يا رسولَ اللهِ وكيفَ يذهبُ العلمُ ونحنُ نقرأ القرآن ونُقْرِئُه أبناءَنا ، وأبناؤنا يُقرئونَهُ أبناءَهُم إلى يوم القيامةِ ؟ فقالَ : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا ابن لَبِيْد ، إنْ كنتُ لأراكَ مِن أفْقَهِ رَجُلٍ بالمدينةِ . أوَلَيْسَ هذهِ اليهودُ والنصارى يقرؤونَ التوراةَ والإنجيلَ ولا ينْتَفِعُونَ مِمَّا فيْهِما بشيء ؟ »[1] .

هذا الحديث يبيِّن أموراً تساعد على فهم أدق للسُّنن ، وهو من فهم الصادق الأمين ﷺ ، الذي ما ترك شيئاً ينفع أُمَّتَهُ إلا وحثَّهم عليه . إنه كان ﷺ يرى المستقبل من خلال السُّنن . السُّنة التي تعمُّ الجميع ، والتي انطبقت على أهل الكتاب السابقين ، ويمكن أن تنطبق

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية (٦٦) من سورة المائدة . وصححه .

على أهل القرآن . فإن هذا الحديث لا يحتمل أي تأويل أو غموض في الفهم . فإنه يذكر سُنّة ، وحادثة معاصرة لها تاريخ سابق ، ومثالاً سيأتي ، فإنه جمع بذلك الماضي والحاضر والمستقبل . لأن الموضوع يخضع لسنّة ، إذ كل من اكتسب الحالة النفسية التي كانت عليها اليهود والنصارى يحلُّ به ما حلَّ بهم . وهذه الحالة النفسية المشابهة ، يطلق الله عليها تشابه القلوب ، ويقول الله في ذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَولاَ يُكَلِّمُنا اللهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِثْلَ قَوْلِهِم تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُم قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوْقِنُونَ ﴾ [البقرة : ٢/١١٨] .

إن فكرة الاجتراء على المعاصي ، على أساس أنهم يعذبون قليلاً ثم يذهبون إلى الجنة ، فكرة منتقدة على اليهود والنصارى ، ولكن ذلك لم يمنع المسلمين من الاحتجاج بالحجج نفسها . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنا النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ [البقرة : ٢/٨٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُم وَهُمْ مُعْرِضُونَ ☆ ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَالُوا لَنْ تَمَسَّنا النَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوْداتٍ وَغَرَّهُم فِي دِيْنِهِم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران : ٣/٢٤ـ٢٥] .

ومثل هذه القياسات والخصوصيات التي تدَّعيها الأقوام لنفسها ، ينفيها الله تعالى في قوله : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوْءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ [النِّساء : ٤/١٢٣] .

في هذا الحديث الذي نحن بصدده ، يقول الرسول ﷺ : « يَحْدُثُ ذَاكَ عِنْدَ ذَهَابِ العِلْم .. » . ويصعب على الصحابي أن يفهم كيف يذهب العلم ومعهم مصدره . فيضرب الرسول ﷺ المثل على إمكان ذلك ، من واقع الحياة المعاصرة لهم ، من مجتمع سابق لا يزال معاصراً لهم ، معهم الكتاب ، ولا ينتفعون مما فيه بشيء .

وهدفي من سياق الحديث هنا ، أن أثبت أن مصير المسلمين إلى ما صار إليه السابقون أمر ممكن ، وهذا ما تمَّ . فالمسلمون اليوم يقرؤون القرآن والحديث ولا ينتفعون مما فيهما بشيء ، وما ذلك إلا لذهاب العلم ، الذي ذهب معه الانتفاع منهما كما يبيِّن الحديث . وهنا لاأُحمِّل الحديث شيئاً لا يحتمله ، وإنما سياقه ونصه هو الذي يثبت هذا بالذات . إن الرسول ﷺ يقرر أنه إذا ذهب العلم ، يذهب معه الانتفاع مما في القرآن والحديث أيضاً .

وقد نختلفُ على حقيقةِ هذا العلم ، وهَل هو عندنا ، أم ليس عندنا ؟

ولكن المهمَّ أن الرسول ﷺ حدّده بأنه علم . ومهما اختلفنا فإن الواقع أقسى من أي خلاف .

إن الواقع بكل ثقله وكل دلالاته الصارخة والخفية ، يقول : إن المسلمين ، لم يعودوا يملكون العلم الذي ذكره الرسول ﷺ ، هذا العلم الذي مجَّدَه الله في القرآن ، وعلى أساسه أثبت تفاوت الناس ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات . وبأسلوب إنكاري نفى أن يتساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

إن العلم لم يعد له مفهوم واضح عند المسلمين . ولا يعرفون له تعريفاً يستطيعون أن يميزوا به ما هو علم مما هو ليس بعلم ، وهذا يفقد العلم قيمته ، فيختلط بالظن ، وينظر إليه كما ينظر إلى الأوهام والظنون ، فهذا هو معنى ذهاب العلم . وكثيراً ما يمدح المسلمون دينهم بأنه دين العلم ، ويريدون بذلك أن يزينوه كما يتزين الفارغون بالأزياء الجديدة . ولكن حين يُبحث الموضوع على أساس العلم ، نرى أعينهم تدور كالمغشي عليه ، ويصير العلم عندهم هو والظن سواء ، ويفضلون أن يتمسكوا بنظرات ذاتية كوَّنوها عن الإسلام ، رسخت على مرِّ العصور .

وليس موضوعنا هنا هو بحث العلم ، هذا العلم المظلوم ، الذي لم

يعد له مقام في العالم الإسلامي . فهو روح فقدناه وحقيقة غبنا عنها . وما لم يرجع هذا العلم إلى المسلمين ، بكل مامنحه الله من قوة وسلطان ، فلن يقدر المسلمون أن يستفيدوا من الكتاب والسُّنّة ، وسيظلون يتدحرجون تحت أقدام اللاعبين ، مهما ظنوا أنهم أهل القرآن وعلم الحقيقة واليقين .

وهنا يختلط على المسلم تقديسه للكتاب والسُّنة ، واعتقاده أنهما يغنيان عن كل شيء بأمر آخر وهو كيف لم يرفعا عن المسلم الهوان الذي وقع فيه .

فهنا نخطئ ويصل تقديسنا للكتاب والسُّنة إلى الغلوّ ، حين نسب إليهما شيئاً ليس من مهمتها ، إذ ليس من مهمة الكتاب والسُّنة ، أن يرفعا الهوان عن قوم لا يستخدمون أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم . فهذه الملاحظة أمر جوهري ، علينا أن نتأمله جيداً ، إذ ليس من شأن الكتاب أن يدخل في قلوب غلف مغلقة . لأنه وإن كان من شأن الكتاب والسنة الهداية ، إلا أن بعض البشر ، يزيدهم هذا الكتاب ضلالاً ولا يزيدهم هدًى . قال تعالى :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ﴾ [البقرة : ٢/٢٦] ، ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ [فاطر : ٣٥/١٨] ،

﴿ إنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ [يس : ١١/٣٦] ، ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِيْنَ ﴾ [يس : ٧٠/٣٦] .

هذه حقيقة علينا أن نفهمها جيداً ، إذ ليس مما ينقص ، من قدر الكتاب والسُّنة ، أنهما لا يرفعان شأن قوم ، لم يرفعوا بما بعث الله به رسوله رأساً .

وعلينا أن نكرر هذا ، حتى لا يُفرَض على الكتاب والسُّنة ماليس من شأنهما . ثم على أساس هذه الفرضية ، يظن أن الكتاب والسُّنة لم يقوما بمهمتهما ، ونقع في هذا الخلط دون شعور منَّا ، فهذا الغموض ، وهذه الفرضيات التي فرضناها وابتدعناها تعظيماً للكتاب والسُّنة ، توهمنا أن الكتاب والسُّنة ، لم يؤدّيا المهمة التي ظننا أنهما ينبغي أن يقوما بها . وهذه متاهة ومكان للالتباس ، وعلينا أن نعرف أن الكتاب يظل كاملاً ، ويظل متصفاً بكل صفات القداسة ، ولا يشترط أن يرفع الكتاب رأس من لم يرفع به رأساً .

وبعد أن نفهم هذا ، نستطيع أن نرجع إلى هذا المسلم الذي يكمن الداء فيه ، إذ فقَدَ الاستفادة من الكتاب والسُّنة لفقدانه العلم ، لا لأن الكتاب والسُّنة لم يعد فيهما ما ينفع . فإن اتَّضح هذا فلا يجوز أن نحمِّل الكتاب والسُّنة ماليس من شأنهما .

ولكن يبقى بعد ذلك أنَّ هـذا المسلم تظل أمـامـه عقبـة أخرى ، مثل تلك العقبة التي مررنـا بهـا وهي : هل يمكن أن يعترف المسلم أنـه بلغ درجة لم يعد ينتفع مما في الكتاب والسُّنة شيئاً ؟ إن هـذا الاعتراف شيء ليس سهل المنـال . إن إدراك هـذا ورسوخـه في أعمـاقـه ، أمر لـه أهمية بالغـة ، لأن المسلم إن لم يفهم هـذا ، لا يمكن أن يتوب ممَّـا فيـه . وكيف يتوب وهو لم يشعر أنه أذنب !

إن الفهم شرط التوبـة ، شرط تغيير مـا بـالنفس ، والتـائب هـو الذي غيَّر ما بنفسه .

إن الكتـاب والحـديث ، وكل السُّنن الكـونيـة ، تظـل معطلـة بالنسبة للإنسان ، إن لم ينتبه إليهـا ، وليس معنى هـذا أن هـذه السُّنن يبطل مفعولهـا ، ولكن معنـاه ، أن المسلم لا يستطيع أن ينتفع منهـا . فالمشكلـة ، ليست في أن الكتـاب لم يقم بمهمـة الإيقـاظ ، ولكن في أن المسلم لم يقم بواجب النظر .

إن عقل المسلم لم يتعلـق بـالكتـاب والسُّنـة بمعنييهما ، بمعنى سنّـة الرسول ﷺ ، وبمعنى سنن الله في الكون . وبهـذا نكـون حـددنـا ، أنَّ مكان المشكلـة ، ليس في الكتـاب والسُّنـة بمعنييهما ، وإنما في العقـل ، الـذي فقَـدَ وظيفتـه في العـالَم الإسـلامي . ويكفي على هـذا دليـلاً ، إغلاقَ باب الاجتهـاد في العـالم الإسلامي خلال القرون الطويلـة . إن

هـذا الإغلاق لم يـأت من الكتـاب والسُّنـة ، ولا أمَرا بـه ، بـل من أهم ما يعنى به الكتاب والسُّنة : الاجتهـاد ، ثم الاجتهـاد ، ثم الاجتهـاد .. ولكن العالَم الإسلامي هو الذي أغلق البـاب ، بـاب الاجتهـاد ، بـاب العقل ، الـذي يمكن أن يـدخل إليـه الكتـاب والسُّنـة ، ليقومـا بمهمـة توجيه هذا الإنسان . وكان الهدف من إغلاق باب العقل عند المسلمين ، حمـايـة الكتـاب والسُّنـة من التلاعب والتفلُّت . ولكن هـذا الهـدف لم يخدم الكتاب والسُّنة ، لأن العقل المقفل لا يستطيع أن يحمي الكتـاب والسُّنة .

واليـوم إن الـــذين يرفعـون لـــواء الكتـــاب والسُّنـــة في العـــالَم الإسلامي ، وكل الرَّبانيين الذين ظهروا في الأمة ، ليسوا أولئك الذين أغلقوا عقولهم ، وأغلقوا بـاب عمل العقـل عن الجـد والاجتهـاد . وإنما أولئـك ، الـذين سعوا ، ولا يزالون يسعـون جهـدهم لإعمـال العقـل ، وإعادة العملية الوظيفية للعقل الإسلامي ، الذي أصيب بالكساح منذ قرون طويلة ، حتى صار مقعداً .

والمتاهة التي يضيع فيها المسلم ، هو ظنه ، أنَّ من بيـده الكتـاب والسُّنة لا يضل عن الكتاب والسُّنة ، وجهلـه أن من فقَـدَ العلم ، الـذي هو نتيجة فتح السمع والبصر ، يفقد الانتفاع بالكتاب والسُّنة .

إن العـالَم الإسـلامي ، إنْ لم يستعمـل سمعـه وبصره وفـؤاده فيما خُلق له ، فإن كنوز الكتاب والسُّنة ، ستظل مقفلة أمامـه ، مهما أكثر من طبعاته ، وأثقل من حملها رفوف المكاتب . وفي هذا ضرب الله مَثَل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها .

إنَّ القلـوب التي عليهـا الطبـع ، والعيـون التي عليهـا الغشـاوة ، والآذان الموقورة ، لا تتفاعل مع الحقيقة .

وهناك مشكلـة أخرى أيضـاً ، ليست أقل استعصـاء على الحل ، أمام فكر المسلم ، فهي عقبة صعبة الاقتحام ، يمثلها هـذا التسـاؤل : إن كان هـذا الأمر حقـاً ، فكيف خفي على المـلايين من المسلمين ، خـلال مئات السنين ؟

إن هذا التساؤل وارد ، سواء في أول الطريق أو في آخره . وما لم تَزُلْ هـذه العقبـة ، فلا يمكن التقـدم في حـلِّ المشكلـة ، فهي نـوع من الآصـار ، والأغـلال ، التي تحـدث الرعـود والبروق في عقـل المسلم ، فلا يعود قـاصراً على تـأمل الموضـوع . لأن في قبـولـه لـذلـك ، إدانـة المـلايين . وفي رفضـه ، زيـادة التعقيـد والْحَيرة . وأنـا أقـدِّر هـذا التساؤل ، وأُسَرُّ أيضاً إذا اعترفت به ، وأرى في ذلك إخلاصَ السـائل . كما أرى أن حلَّ هـذا التسـاؤل ، وإزالـة المشكلـة ، يكون سببـاً لراحـة

المسلم ، وتطمين ضميره . وبدون هذا الحل ، يشعر بامتعاض ، وقد يتمنى لا شعورياً ، ألا يواجه المشكلة . ولكن لا بدّ من إزالة التيارات المزعجة . وعقل المسلم ، يُقْبِل على هذا بكل حذر ، مثل حَسْوِ الطير للماء ، حين خوفه .

فهذا الخوف ، من إدانة المئات من الملايين من المسلمين ، بأنهم لم ينتبهوا إلى هذا خلال مئات السنين ، لا نقول إن هذا الخوف لا مبرر له مطلقاً ، بل فيه صواب ، كما فيه أخطاء ليست هينة ، وأحياناً تحجُبُ شعرةٌ ، نورَ العين فتمنعها من الإبصار . وأحياناً تتعقد المشكلة ، وحلّها يسير كما قال البدوي :

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفوسُ مِنَ الأمْرِ لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ العِقالِ .

فيا أخي وعزيزي ، أيها المسلم القلق في كل مكان ، يا من يقلب وجهه في السماء ، باحثاً عن القبلة التي يرضاها ، إني أُشاركك في قلقك وتطلعاتك . لقد عانيت ما تعاني ، فتعال نبحث ، دون أن أتضايق منك أو تتضايق مني . إني لا أتضايق منك ، بل أستبشر بهذه الأشواق التي تحملها إلى المعرفة ، وإلى الكشف ، وإلى شوقك إلى البلاغ المبين .

وإني أرى نفسي فيك ، فأنا مشيت معك هذا الدرب ، ومررت على هذه الثغرات ، ويذكرني هذا بقول إقبال رحمه الله :

لَيْسَ يَخْفَى عَلَى القَلَنْدَرِ[1] فِكْرٌ   سَاوَرَ النَّشءَ ظَاهِراً أَوْ خَفِيَّاً
أَنَا عِنْدِي بِكُلِّ حَالِكَ خُبْرٌ   فَبِهَذا الطَّرِيقِ سِرْتُ مَلِيَّاً

وهذا القلق الذي يخطر ببال المسلم ، من استغراب غفلة الملايين خلال مئات السنين ، حلّه في الكتاب والسُّنة ، حين نتوجه إليها بعيون وقلوب مبصرة ، وعندها لن نضل أبداً .

إن من أوليات ما يعلمنا الله تعالى في كتابه الكريم : أن الباطلَ لا يكسبُ قوةَ الحقّ ، وإنْ كثرَ أتباعه وطالَ عمرُهُ : ﴿ قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيْثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيْثِ ﴾ [المائدة : ٥/١٠٠] .

والقرآن الكريم يَدينُ الذين يَلْزَمُونَ ما كان عليه آباؤهم ، فيقول في ذلك :

﴿ وَإذا قِيْلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَاأَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَاأَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كَانَ آباؤهُم لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾[البقرة : ٢/١٧٠] .

والآياتِ في هذا كثيرة . والقرآن مليء بهذا الموضوع : ﴿ إنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُم ضَالِّينَ ☆ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِم يُهْرَعُونَ ﴾[الصّافات : ٣٧/٧٠ـ٧١].

ولا سيا في المحاجة بين الأنبياء وأقوامهم : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ

---

(١) رمز يستخدمه محمد إقبال : للمسلم الذي أدرك الحقائق .

الأُوْلَى ﴾ [طه : ٢٠/٥١] ، إنه السؤال نفسه الذي يراودنا الآن . لكن علينا أن نواجه بوعي ، هذا الذي يعترضنا . ونحن هنا نستعين بجواب موسى عليه السلام ، الذي اصطنعه الله لنفسه . قال موسى في الجواب :

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾ [طه : ٢٠/٥٢] .

والذي أريد أن نستفيده من موسى عليه السلام هنا ، أن فرعون لما قال : فما بال القرون الأولى ؟ كان يريد أن يقول : ياموسى هل أنتَ وحدَك الذي فهمت هذا الذي جئنا به ؟ فما بال القرون الأولى ؟ يعني : ما بال الأجيال المتتابعة الماضية ، الكثيرة العدد خلال قرون بعيدة . الذين لم يفهموا هذا الفهم ؟

واليوم قد يخطر في بالنا نحن أيضاً هذا التساؤل نفسه . كما يخطر لنا تساؤل آخر ، وهو أن يقال ، إنك تُشبِّه المسلمين بالكافرين ، بفرعون والأُمم الضالة الوثنية . ونحن إن أردنا الشفاء ، مما نحن فيه من المصيبة ، علينا أن نتقبل بعض الصعوبات التي لم نتعودها . وعلينا أن نغير شيئاً من نظراتنا إلى المسلمين وقد قدمت أن آية التغيير ، التي هي موضوع بحثنا في هذا الكتاب سنة عامة وليست سنة خاصة بقوم معينين . فكل قوم يحملون الأفكار نفسها ، تحلُّ بهم النتائج نفسها .

إن السُّنن النفسيـة ، مثـل السُّنن العضـويـة ، تنطبـق على المسلم والكافر . فعلينا أن نمتلك القـدرة على أن نرى الفكرة نفسهـا وأثرهـا ، بصرف النظر عمن يحملها :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ » [النّساء : ١٢٣/٤] .

ثم كذلـك ، لا يشترط أن يكون أولئـك الآبـاء من أهل النـار ، وأن يصيروا بذلك كفـاراً . والخوف من أن نُحَمِّلَ الآبـاءَ ، إثمَ الخطـأ ، يشكِّل حاجزاً نفسياً يمنع من تأمُّل الموضوع بنزاهة . فقـد يكون لهؤلاء الآباء ، على أخطائهم أعذارٌ عند الله . فقد أخطأ من أهل أُحـد الرُّمـاة الـذين تركوا أمـاكنهم ، ولكن انتقل من قُتِلَ منهم ، إلى حواصـلِ طيرٍ خضرٍ في الجنة ، في مساء ذلك اليوم .

ولابن تيميّة ، كلامٌ حسنٌ على هذا الحاجز النفسي عند المسلمين ، قالَ : « ويترتب على هذا الأصل ، أن الرجل العظيم في العلم والدين ، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم الدين ، قـد يحصل منـه نوع من الاجتهـاد ، مقرونـاً بـالظن ، ونـوع من الهـوى الخفيّ ، فيحصـل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتِّباعه فيـه ، وإن كان من أوليـاء الله المتَّقين . ويصير فتنة لطائفتين ، طائفة تعظمه ، فتريد تصويب ذلـك الفعل ،

واتّباعه عليه . وطائفة تذمّه ، فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه ، بل في برّه ، وكونه من أهل الجنة ، بل في إيمانه حتى تخرجه من الإيمان . وكل هذين الطرفين فاسدٌ . ومن سلك طريق الاعتدال عظّم من يستحق التعظيم ، وأحبه ووالاه ، وأعطى الحق حقه . فيعظّمُ الحقّ ، ويرحمُ الْخَلْقَ ، ويعلم أن الرجل الواحد ، تكون له حسناتٌ وسيئاتٌ فَيُحْمَدُ ويُذَمُّ ، ويُثَابُ ويُعَاقَب ، ويُحَبُّ من وجهٍ ، ويُبْغَضُ مِنْ وَجهٍ . هذا هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ خِلافاً لأهل البدع »[1] . لهذا كان جوابُ موسى ، جواباً علمياً دقيقاً ، مراعياً الاعتبارات النفسية وحواجزها . كان جواباً رائعاً ، كان جوابه : ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ ولم يَقُل : أولئك الأقوام في كذا ، أو سيصيرون إلى كذا ، لأن المشكلة هنا ، ليست مشكلةَ أقوام مضتْ يُرادُ إدَانتهُم ، ولكن المشكلة ، مشكلة تخليص أقوام لا يزالون يعيشون الآن .

وعلى المسلم أن يكون حاذقاً في هذا ، فليدع مصير أولئك ، فقد يكونون في مغفرةٍ من الله ورضوانه . ولكن ذلك ، لا يُبَرِّرُ لنا أن نظل في الخطأ ، ولا يبرر لنا أن نَحْمِلَ أَوْزَارَهم . وعلينا أن نتذكر قوله تعالى الذي تكرر في سورة البقرة في مثل هذا الموضوع ، مرة في

(١) ص ٧٢ مختارات السعدي .

التعقيب على الصّالحين : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ☆ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٤/٢ـ١٣٥] . ومرة أخرى في التعقيب على المنحرفين فيقول : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُم أَعْلَمُ أَمِ الله وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ☆ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُم وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٠/٢ـ١٤١] .

وهناك سنّة قرآنية أخرى ، علينا أن نستفيد منها أيضاً وهي ، أن القرآن ، كلما حكم على أقوام ماضية بالضلال ، لا يعمّهم جميعاً ، بل يستثني القليل أو يحكم غلى أكثرهم : ﴿ وَمَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُم ﴾ [النّساء : ٦٦/٤] ، ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠/١١] . ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣/٣٤] ، ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ [صۤ : ٤٤/٣٨] ، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وأَنْتُم مُعْرِضُونَ ﴾ [البقرة : ٨٣/٢] ﴿ ولا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلاً مِنْهُم ﴾ [المائدة : ١٣/٥] ، ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ

القُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُم ﴾ [هود : ١١٦/١١] . وهذا بالنسبة لمجموع القوم ، إذ يكون الكثيرون منهم على الخطأ ، وأفراد قلائل يُسْتَثْنَوْنَ من المعصية ، التي وقع فيها الأقوام . ولا يحكم القرآن على الجميع ، إلا أن يكون وجه آخر ، مثل جنود إبليس أجمعين . وهناك غير الحكم على مجموع الأفراد ، حكم على مجموع أعمال الفرد أو المجتمع ، فكذلك يحكم الله في هذا أيضاً مثل قوله تعالى :

﴿ فَقَلِيلاً مَا يؤمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٨٨/٢] ، ﴿ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٣/٧] ، ﴿ بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الفتح : ١٥/٤٨] .

والآن إذا رجعنا إلى موضوعنا ، في الحاجز النفسي ؛ ما بالُ القرون الأولى ؟ ما بال الملايين خلال المئات من السنين هل كلهم كذلك ؟

لا لم تكن الملايين خلال مئات السنين كذلك . ولكنْ قليل في التاريخ ، خلال مئات السنين ، الذين كانوا لا ينطبق عليهم قوله تعالى :

﴿ وَإذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠/٢] .

ولو نظرنا إلى التاريخ ، لوجدنا أمثال ابن تيمية[1] ، يطاردهم أتباع الآباء (الآبائيون) ، خلال التاريخ ، وتُطَارَدُ مؤلفاتهم أيضاً ، سواء ممن كانوا من أتباع الآباء الأولين ، أو من أهل السياسة والسلطان . فلقد مات ابن تيمية في سجن القلعة في دمشق ممنوعاً عنه أدوات الكتابة .

كما لا يشترط في هؤلاء القليلين ؛ أن يكونوا معصومين لا يقعون في خطأ ، ولا سوء فهم في أمر من الأمور . ولكن حسبهم ، أنهم كانوا منارات في دَرْبِ التَّبَصُّر . إذا نظر أحد إلى التاريخ ، برزوا فيه كالنجوم يزدادون ضياء على مرِّ العصور . فسواء شعر من ينتقدهم ، أو يتهمهم حتى في نياتهم ، أو لم يشعر ؛ إنه يقف على ما رفعوه من معالم ، حين يحاول أن يفهم شيئاً ما ، على أساس العقل .

وكل من أراد أن يقرأ آيات الله ، في الآفاق والأنفس ، في هذه الأيام ، يجد هؤلاء رُوَّادَ الطريق ، وعكازات يتكئ عليهم ، لِيَثْبُتَ أمام عُصْبَةِ الآبائيين . وإذا شعر أنه في غنًى عنهم ، فإن هذا الجو الذي

---

(1) وما يزال الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، موضع ريبة وتشكيك ، حتى عند بعض من يُعَدُّ من المتبصرين في هذا العصر . ووجود هذه القلة ، لا يستتبع تغيير المجتمع ، ذلك أنه ، لم يعم هذا النموذج بنسبة معينة ، يصل بها إلى إسقاط فرض الكفاية كحدٍّ أدنى .

يستطيع أن يتنفس فيه ، إنما هو من صنعهم ، وصنع كفاحهم . إن من يعرف معالم التاريخ ، يمكن أن يعرف ذلك . ولكن مصيبة من المصائب ، أن لا تعرف كيف حدث ما حدث ، ولا على أي أكمة تقف ، سواء كان من العَمارِ ، أو الخراب ، حين نقف لنحكم على الأحداث .

كان البحث ، في موضوع : ضرورة ربط آيات الآفاق والأنفس ، وسنن التعامل معها ، بآيات القرآن ، ربطاً محكماً ، بحيث يشعر المسلم ، بالارتباط القوي بين آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس ، وأن ذلك ليس مجرَّدَ إقْحَامٍ . وهذا يحتاج إلى حذق ، وإلى معرفة دقيقة من التعامل مع الأنفس . ونحن إذا أردنا أن نعيد للعقل وظيفته ، فلا يعني ذلك ، معارضة أمر القرآن ، بل من أعظم مهمة الكتاب الكريم ، أن يعيد للإنسان ، كإنسان ، وظيفته . ثم بعد ذلك يسير به في ظلال : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ حتى يوصله إلى النعيم المقيم ، ولا يتركه في أي جزء من الطريق من حين أن يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ وإلى أن يقول : ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِيْنَ ﴾ .

ولعلّي أكون بهذا ، قد بعثت بصيصاً من الأمل ، فيما حاولت أن أصل إليه ، من أن : كل سنّة ، وكل مثال في التغيير ، ينبغي أن

يكون مستنداً إلى القرآن الكريم ، لتكسب السُّنَّة فاعليتها الاجتماعية عند المسلمين . ومعنى الفاعلية الاجتماعية ، أن يتعامل العقل مع السُّنن ، في سعيه إلى ابتغاء مرضاة الله . والمجتمع الذي شأنه هذا ، سيكون من أبرع المجتمعات البشرية ، في استخراج أحسن النتائج ، من الوسائل المتاحة له ، باستخدام السُّنن استخداماً صحيحاً . فمثل هذا المجتمع ، هو الذي يسبغ الله عليه من نعمه ، ظاهرة وباطنة ، في الدنيا والآخرة : ﴿ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ [البقرة : ٢/٢٢٠] . وحتى هذا الوصل بالكتاب ، قد لا يكفي لإقناع المسلم ، بأنه لم يخرج عن أمر الكتاب ، لأنه لا يكفي عند المسلم ، أن يكون الموضوع موجوداً ، في الكتاب والسُّنة ، حتى يقبل الأمر . لأن فهم الكتاب والسُّنَّة مقيّد بفهم الآباء ، وفكرة : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/٢٤] . لها سلطان أيما سلطان ، ومن هنا يتبين ، أن مشكلة المسلمين معقدة ، ليست بسيطة . ولكن مع ذلك ، فإن إدراكها إدراكاً صحيحاً ، لا يجعل الأمر مستعصياً على الحل . لأن المشكلة ، مشكلة إكساب الإنسان المسلم ، قدرة التعامل مع الحقيقة ، بصرف النظر عن ملابساتها ، أو إكساب المسلم قدرة التعامل مع السُّنَّة : ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ [الأحزاب : ٣٣/٣٨] .

وهنا ينبغي أن نشير إلى أمر آخر ، وهو القدرة على التميز ، بين

مانقبله على أساس الثقة ، وما نقبله على أساس التعامل مع السُّنَّة .
فإن من أدرك كيفية التعامل مع السُّنَّة ، لا يعود يبالي بالثقة من جهة الناقل ـ فيما يمكن اختباره على أساس السُّنَّة ـ سواء كان الناقل موثوقاً به ، أو ليس كذلك ، لأن الموضوع في هذه الحالة ، يحمل دليله معه .
فكل من عرف التعامل مع السُّنن ، لا يمكن أن يخدعه صديق ، أو يغره عدو ، سواء كان قاصداً أو غير قاصد . أما من لا يعرف التعامل مع السُّنَّة ، وإنما يقبل الموضوع على أساس الثقة فقط ، فهذا معرض للوقوع في الخطأ ، ولا سيما إذا كان ، في قبول تفسير ، ما ينقل عن المعصوم ﷺ . وهذا التعرُّض للخطأ يكون على وجهين :

حين نقبل خطأ من نثق به .

وحين نرفض صواب من لا نثق به .

وأسلوب أخذ المسلمين ، العلوم الاجتماعية والنفسية ، مبني على أساس الثقة ، فلهذا لا قدرة لنا على التعامل مباشرة مع السُّنن ، وإعطائها ما تستحق من العناية .

وليس معنى ذلك عدم التثبت إن جاءنا فاسق بنبأ ، فإن أمور الدنيا ، التي يمكن أن تقع تحت اختبار العلم ، الذي يمكن أن نكتشفه في سنن التاريخ ، ووقائع الأحداث ، نقبل فيها على أساس الاختبار

والعلم ، فنأخذ أحسنها نتائج ، وأحمدها عواقب . وهذا الذي أمرنا الله تعالى به في قوله : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ☆ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئك الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [الزُمر : ١٨/٣٩] .

فإن جاءنا أحد بنبأ في علم الفلك ، لا نقول عنه منجم كذاب ، مادام ما يأتي به خاضعاً للاختبار . ويقول في هذا ابن تيميَّة : « ... والعلم بوقت الكسوف والخسوف ، وإن كان ممكناً ، لكن المخبر المعين قد يكون عالماً بذلك ، وقد لا يكون ... ولكن إذا تواطأ خبر أهل الحساب على ذلك ، فلا يكادون يخطئون ... وإذا جوّز الإنسان صدق المخبر بذلك أو غلب على ظنه فنوى أن يصلي الكسوف والخسوف عند ذلك واستعد ذلك الوقت لرؤية ذلك كان هذا ... من باب المسارعة إلى طاعة الله وعبادته »[1] .

وفي سنن التاريخ والنفس والاجتماع ، حين يأتي أحد بنبأ ، فليس النظر فيه إلى فسق من أتى بالنبأ أو تقواه ، ولكن إلى مقدار صمود ما أتى به من برهان على دعواه ، أمام الاختبار والتحقيق . وهذا كان واضحاً لابن خلدون في بحثه لسنن العمران وطبائعه ، قال في

---

(١) الفتاوى ٢٢٢/١ ، طبع القاهرة ، ١٣٢٦ هـ .

أسباب ما يجعل الكذب متطرقاً للخبر : « ومن الأسباب المقتضية للكذب ، وهي سابقة على جميع ما تقدم : الجهل بطبائع الأحوال في العمران . فإن كل حادث من الحوادث ـ ذاتاً كان أو فعلاً ـ لا بد من طبيعة تخصه في ذاته ، وفيما يعرض له من أحواله ، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ، ومقتضياتها ، أعانه ذلك ، في تمحيص الخبر ، على تمييز صدقها من كذبها ، وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ، ولا يرجع إلى تعديل الرواة ، حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ، ممكن أو ممتنع . وأما إذا كان مستحيلاً ، فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح . ولقد عدّ أهل النظر ، من المطاعن في الخبر ، استحالة مدلول اللفظ ، وتأويله بما لا يقبله العقل . وإنما كان التعديل والتجريح ، هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية ، لأن معظمها تكاليف إنشائية ، أوجب الشارع العمل بها ، حتى حصل الظن بصدقها . وسبيل صحة الظن ، الثقة بالرواة ، بالعدالة والضبط .

أما الأخبار عن الواقعات ، فلا بدّ في صدقها وصحتها ، من اعتبار المطابقة ، فلذلك وجب أن ينظر في إمكانِ وقوعه ، وصار فيها ذلك ، أهم من التعديل ومقدماً عليه . إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ، ومن الخارج بالمطابقة ... وهذا قانون في تمييز

الحق من الباطل ، في الأخبار بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه . وهذا هو غرض الكتاب الأول من تأليفنا ... وكأن هذا علم مستقل بنفسه ، فإنه ذو موضوع : ـ وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني . وذو مسائل : ـ وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أم عقلياً »[1] .

إن من يفهم سنن علم الاجتماع والنفس ، في الدعاية للصناعة والتجارة ، يمكن له أن يقوم بأعمال ، تجعل الناس يبذلون أموالهم ، ويقبلون على شراء السلع ولدى الناس بالفطرة أو السليقة البدائية ، من يقوم بهذا العمل من الباعة المتجولين . ولكن الأجهزة المتخصصة على المستويات العليا ، والتي تدرك الأمور بدقة في جميع جوانبها ، تقوم بأعمال ، يُظن أنها من عالم الخيال ، كذلك علم النفس الاجتماعي الحربي الدعائي ، وكذلك علم النفس الاجتماعي العقائدي الفكري ، وهو ما يسمى بالإيديولوجيات . إن مجتمعاً معيناً في الثقافة والوعي ، قد لا يتأثر بنوع معين من الدعاية ، بينما يؤثر ذلك في مجتمع آخر .

إن حماية مجتمع ما ، في الحرب والاقتصاد والعقيدة ، ليس

---

(١) المقدمة : ص ٣٧

خاضعاً للمصادفة ، ولأمور اعتباطية ، وإنما يخضع لموازين دقيقة ، مما بـالأنفس من الأفكار ، التي يمكن أن يُجْرِيَ عليهـا الاختصـاصيـون التعديلات المطلوبـة كمّاً وكيفـاً ، ضمن نطـاق زمن محـدد ، بنـاء على خبراتٍ سابقـة ، من سنّـة الأولين أو المعـاصرين . كل ذلـك علم ، وكل ذلـك سنن ، يمكن معرفتهـا والسيطرة عليهـا ، وتصحيـح الأخطـاء فيها ، ومسابقة الزمن في ذلك .

ولكن لن يتمكن من ذلـك عقـل مَرغـوبٌ ، لا علم لـه بـأحـداث العالم ، ولا يعرف من أين تأتي المصائب ، ولا كيف تُـدفَع ، ولا كيف تُعْطَى المناعاتُ للمجتمعات ، ضدّ الأخطـار الفكريـة ، لحمّايـة المجتمع ، فضلاً عن أن ينشئ أجهزة لمراقبة الانحرافات وتصحيح الأخطـاء ، على أساس السُّنن والقواعد التي تخضع لها المجتمعات .

العقل والسُّنن في القرآن

يَشْغَلُ العقلُ والسُّنّةُ ، مكاناً بارزاً في القرآن ، مقصوداً لا عرضاً . حيث تجد الحديث عنهما مبثوثاً في الكتاب الكريم . سواء في النظر إلى مظاهر الطبيعة ، أو في الاعتبار من الأمم الخالية ، وذلك حين يعالج القرآن مشكلة الإنسان - أو بالتعبير القرآني - موضوع الهداية والضلال ، المتعلق بحياة الإنسان .

أما الحديث عن السُّنّة ، فقد سبق أن ذكرنا طرفاً صالحاً منها ، ولا سيا سنن المجتمعات ، وهي آيات الأنفس التي ستظهر في المستقبل :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصّلت : ٥٣/٤١] . وأن ظهور هذه الآيات ، الآفاقية والأنفسية ، سيكون سبباً لِبَيَانِ أنَّ ما نَزَلَ مِنْ عِنْدِ الله هُوَ الْحَقُّ : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ : ٦/٣٤] . وهذا الموضوع ، موضوع السُّنّة ، ربما يمكن تَقَبُّلُه بدونِ صعوبةٍ كبيرة . إلا أن المشكلة ، مشكلة العقل ، وما يعرض له من الركود والعطالة عن أداء وظيفته ، أو ارتباطه بسنن الكون ، هذه الوظيفة ، وظيفة التسخير .

ولقد اعتنى القرآن الكريم ، عناية بالغة ، واستنهض الهمم ، حتى لا يفقد العقلُ مَضاءَهُ وقُوَّتَهُ ، في إدراكه لسنن الحوادث والاعتبار بها . واعتبرَ الذين عطّلوا قلوبهم كالأنعام ، بل هم أضلُّ .

والعطالة ، التي تصيب العقلَ عند الإنسان ، لَها مَصْدرٌ أساسي ، وهذا المصدر له بعد ذلك أعراض أخرى تدلُّ عليه .

والمصدر الأساسي للعطالة : العقيدةُ العَبَثِيةُ في الوجود والكون ؛ اعتقاد العبث واللعب في الوجود . يقول تعالى في هذا : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰواتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴾ [الدخان : ٣٨/٤٤] . وقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾ [المؤمنون : ١١٥/٢٣] .

إن العقيدة العبثية في الكون هي ، عدم رؤية النظام ، وعدم رؤية السُّنن ، وعلاقة الطاقة المفكرة الإنسانية بسنن الكون . وهذا هو ظن العبثية في الوجود . إن الذي لا يرى هذه العلاقة ، وهذا الارتباط ، لا يمكن أن يقدر المسؤولية الدنيوية ، ولا المسؤولية الأُخروية ، أي لا يقدر المسؤولية الاجتماعية ، ولا المسؤولية الفردية - كما سبق - أنْ شَرَحنا ذلك .

إن هذه العقيدة العبثية ، توارثناها على مرِّ القرون ، إن لم تكن باسمها فَبِمُحْتَواها ، وتغلغلت هذه العقيدة في النفوس ، وشملت القِمَّة

والقدمين . ومهما تفاوتت هذه العقيدة في الرسوخ ، إلا أنها استقرت بشكل فعّال ، وساهمت في شلل الفكر والعمل ، في العالم الإسلامي . وهذا الشلل في الفكر ، الذي أشرنا إليه في إغلاق باب الاجتهاد ، إنما هو جنين ، ووليد لهذه الآفة ، التي نتحدث عنها الآن ، وهي : عدم رؤية علاقة الطاقة الفكرية في الإنسان ، بسنن الكون . وظن الفوضى ، وعدم الخضوع للسُّنن ، في أحداث الكون .

وما دامت هذه العلاقة غير ثابتة ، وغير موجودة ، وغير معترف بها ، فلا جدوى من إعمال العقل والفكر .

فهذه الآفة التي تسللت إلى الفكر الإسلامي ، دون اسم معين ، أو باسم تعظيم السلف ، وتعظيم القدرة الإلهية ، التي لا تدع مجالاً للعمل . هذه الآفة ، وَلَدَتْ بَعْدَ ذلك أجِنَّتَها ، التي نمت وترعرعت ، وصار لها أخفادٌ وذرية . إذ ما دام الأمر يسير على غير سُنَنٍ يُمْكِنُ أن نتبعها ، فلا جدوى من إعمال الفكر لكشف حلّ ، وتغيير واقع .

والقرآن الكريم ، يعدد الآفات التي تتولد عن العقيدة العبثية في الوجود . ونذكر منها خمسة :

١ ـ الغفلة .

٢ ـ الإعراض .

٣ ـ التكذيب .

٤ ـ الهوى .

٥ ـ تقليد الآباء .

١ ـ آفة الغفلة :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ☆ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ٧/١٠] .

وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا عَنهَا غَافِلِينَ ☆ وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُم هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤٧/٧ـ١٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩/٧] .

٢ ـ آفة الإعراض عن آيات الله وسننه :

يقول الله تعالى في ذلك : ﴿ وَكَأَيٍّ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥/١٢] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢/٢١] .

وقال أيضاً : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِم فَهُم عَنْ ذِكْرِهِم مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧١/٢٣] .

وسبب هذا الإعراض ، عدم رؤية العلاقة بين طاقة الفكر وسنن الكون ، هذه العلاقة التي يسميها الله التسخير .

٣ ـ آفة التكذيب وافتراء الكذب :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ [الأنعام : ٢١/٦] .

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِم ﴾ [فاطر : ٢٥/٣٥] .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِير ﴾ [الملك : ١٨/٦٧] .

﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ ﴾ [الزُّمر : ٥٩/٣٩] .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُه كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس : ٣٩/١٠] .

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٥/٣] .

﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً ﴾ [النّساء : ٥٠/٤] .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٤٤/٦] .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزُّمر : ٣/٣٩] .

في هذه الآيات يبيِّن الله :

١ ـ أن التكذيب ظلم .
٢ ـ وهو شيمة الأقوام السابقين أيضاً .
٣ ـ وأن للتكذيب عاقبة ...
٤ ـ وله ارتباط بالاستكبار .
٥ ـ ويكون بما لم يحط به الإنسان علماً .
٦ ـ ويكون أحياناً عن علم وتعمد .

٧ ـ التكذيب قد يكون للإضلال بغير علم .
٨ ـ والكاذب لا يهتدي إلى الحق .

التكذيب ، مثل الاستكبار والإعراض والغفلة ، ينشأ عن مفهوم بالنفس ، لأن التكذيب مما بالقوم ، وليس مما بالأنفس ، وإنما ينتج مما بالأنفس ، فوراء الكذب ، أمر متعلق بالنفس من المفاهيم والأفكار والمعتقدات ، ينتج عنه الكذب والتكذيب . ولا يتغير تكذيب القوم ، أو كذبهم ، حتى يغيِّر القوم ما بأنفسهم من دوافع التكذيب المستقرة في نفوسهم .

ونحن إذا نظرنا إلى التكذيب ، ينبغي أن ننظر إليه على أساس أن له سُنناً متعلقة بالنفس ، يمكن أن يحدث لكل من تكونت لديه تلك النظرات . فالمشكلة هنا دقيقة ، وذلك أن هذه السُّنّة سنّة بشرية غير خاصة بقوم معينين ، وإنما هي عامة لكل الناس الذين يحملون أفكاراً معينة . ويكون التكذيب مطابقاً لما في النفس من الأفكار ، قلّةً وكثرةً ، قوةً وضعفاً .

وعلينا أن ننظر بشيء من برود الأعصاب ، دون أن يصيبنا الدوار من أن هذه الصفات ، صفات الكافرين ، فكيف تنطبق على المسلمين ؟!

وعلينا أن نخاف من المفاهيم التي يولد منها الكذب والتكذيب ، أكثر من خوفنا من الكذب والتكذيب . لأن خوفنا من الكذب والتكذيب ، لا يردُّنا عن الوقوع فيهما ، رغماً عنّا ، إذا كان ما بأنفسنا ما يتولد عنه الكذب والتكذيب . وما المصائب التي تنزل بالمسلمين إلا لأنهم يكذبون بكثير من آيات الله ، ويعرضون عنها ، ولا يعرفون ارتباط هذه المصائب ـ التي تنزل على الأقوام المسلمين ـ بما بأنفسهم من الأفكار الخاطئة ، التي تحدث هذه العلل . وآيات الله تعالى ، تكون في الكتاب ، وفي الآفاق وفي الأنفس . وكل الذين لا يفهمون آيات الله ، وإن كانت في حدّ ذاتها واضحة ، معرَّضون للتكذيب بها ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ . وضربنا لذلك مثلاً حين شرحنا قول الرسول ﷺ في ذهاب العلم ، برغم وجود الكتاب بين الناس دون أن يغني عنهم شيئاً ، كما تفقد آيات الكتاب مفعولها عند الذين فقدوا العلم بها ، كذلك فإنَّ آيات الآفاق وآيات الأنْفُس تَفْقِدُ مَفْعولَها أيضاً ، عند الذين فقدوا العلم بها . بل إن آيات الآفاق والأنفس ، لم نتعلم بعد قراءتها ولا طريقة فَهْمِها ، فلذا يسهل علينا جداً التكذيب بها ، بل نظن أن هذا التكذيب الذي نكذب به ، يرضى عنه الله سبحانه وتعالى ونخدم به دينه ، ونحصنه من الضياع .

وفي الواقع ، إن من عرف قراءة آيات الآفاق والأنفس ، وعرف

كيف يتعامل معها ، يدرك أن لهـذه الآيـات الآفـاقيـة والأنفسيَّـة قُوَّةَ آيات الكتاب في الدلالة على الحق ، كما يقول محمد إقبـال : بل إن هـذه الآيـات الآفـاقيـة والأنفسيـة هي التي تشهـد بصـدق آيـات الكتـاب . والقرآن الكريم يطلب منا أن نطلب علماً خارج القرآن ، وذلك بالسير والنظر في الأرض ، إلى آيات الله المودعة في الآفاق والأنفس . فـآيـات الآفاق والأنفُس من القرآن ، من حيث إن القرآن يأمر بالنظر إليهـا ، ولكن مكان طلبها ليس في القرآن ، وإنما في الكون . ومن فقَـدَ ملكـة العلم ، لا يعود يستفيـد من آيـات الكتـاب وإن كانت واضحـة بيِّنـة . فالقرآن يأمر بإعمـال العقل ، والاجتهـاد في الفهم والنظر ، ومع ذلـك أغلق المسلمون باب الاجتهاد على أنفسهم . ولا أهتَمُّ كثيراً بوجودِ رجالٍ هُم أهلٌ للاجتهاد أم لا ، وإنما أهتَمُّ بِمَا آلت إليـه هـذه الأمـة ، حتى لم يعـد لـديهـا قـدرة على الفهم ، ففقـدت النمـو وتـوقفت عن الحركـة ، وأخذت في التقهقر ، حين أحلَّت التقليد محلَّ الاجتهاد .

والغرض من هـذا ، أن نستفيـد من المـاضي ، لننزع عنـه هـالـة القدسيـة العميـاء ، التي تخفي نقـائصـه . ومثل هـذا النظر جعل محمد إقبـال يحجب الثقـة ، عن إنتـاج المسلمين في وقت ضعفهم ، كـذلـك سنذكر نظراً جيداً للأستاذ سيِّد قطب أيضاً فيما بعد في هذا الموضوع .

إننا هنا نقف على عتبة التيه ، الذي يعيش فيه المسلمون في كل مكان .

إن المرض عام شامل مطبق ، كما تعمُّ الرطوبة في الشتاء كل مكان . كذلك العالَم الإسلامي ، أنَّى ذهبت تجد هناك الرعب من إعمال الفكر والعقل ، كأن مصيبة المصائب ، في أن يبدأ الإنسان في التفكير والفهم باستقلال ـ مع أن فلاحهم بإعادة وظيفة العقل ـ ولو خالف من خالف ، من القرون الماضية ، مادامت آيات الله في الكتاب والآفاق والأنفس معه . ولكن نحن لم نعد نتعامل مع آيات الكتاب المسطور (القرآن) ، ولا مع آيات الآفاق التي هي (كتاب الله المنشور) ، إنما نتعامل مع إنتاج المرعوبين ، الذين تدور أعينهم خوفاً من التبصر . وبدون التبصر تفقد الحياة التي أرادها الإسلام للبشر قيمتها : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٢/١٠٨] .

في التنظيم والتخطيط :

إنَّ مَرَضَ المسلمين ، ليس في عدم وجود الْمُنَظَّماتِ والمخطَّطات ، بل في جمودِ العقلِ والفكرِ ، فإن كان لابُدَّ من منظَّماتٍ ومخطَّطاتٍ ، فليكن التنظيم والتخطيط ، في سبيل رفع الآصارِ والأغلالِ عن القلوب الْمُقفلة . إن التنظيم والتخطيط ليسا في حدِّ ذاتها هَدَفاً ، بل هما أداةٌ ووسيلة ، قد تُسَاعِدُ عَلَى التخلُّصِ من الآصارِ والأغلالِ ، وقد

تُثَبِّتُها ، أو تَزيدُهَا ، أو تستبدلها بأثْقَلَ منها . وما لم ندرك هذا بوضوح فسنظلُّ ندور في التِّيه . وسنظلُّ نحاول أنْ نُعالِجَ بعضَ الأعراض والذراري للمشكلة الأساسية : وهي انفكاك جَوهَر الإنسان عن وظيفته التي خلقه الله من أجلها . سنظلُّ نعالج الأعراض ، بينما تظلُّ أُمُّ الأمراض ، وأبوها يعشش ويفرِّخ ، دون أن يمسَّه أحد بشيء من النكش أو الهز . ومن يحاول أن يقول : إن المرض هناك فسينظر إليه بريبة ، إن لم تُعلن عليه الحرب ، وأنه اتَّبع غير سبيل المؤمنين .

إن هذا الجمودَ ، نَوْعٌ فظيعٌ من الْجُحُود بآيات الله ، مستتر في الأعماق . إن المشكلة من عند النفس ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النّحل : ٣٣/١٦] . إن هذا التخوُّف من الفكر وإعمال الفكر ، والهجمات التي تشنُّ على من يريد أن يتبصر ، سلاح له فعَّاليةٌ في مجتمع كسيح الفِكْر . فلهذا لا نَزالُ نَرى الأقلامَ في رُعْبٍ ، حين الكتابة في هذا الموضوع ، خوفاً من الهجمات التي يشنّها الآبائيون .

إن الذين طال عيشهم في الظلام ، يؤذيهم النور ويجرح أبصارهم ، ولكن من تمسك بنور الله وسننه ، وكان حاذقاً ، في ربط الحقائق بعضها ببعض ، وبيان حقائق الكتاب المضيعة المهملة ، سيكون له شَرَفُ أذانِ الفَجْرِ ، في لَيْلِ الشتاء الطويل الذي عشنا فيه . وسيجيء هناك الحق ويزهق الباطل .

وأعيد وأكرر ، إن العالَم الإسلامي لم يَخْلُ مِنْ هادٍ وداعٍ ، ولم ينقطع فيه الفكر على الإطلاق ، ولكن ظل هؤلاء أفراداً قلائل ، تنبذهم الأمواج المتلاطمة ، من الجمود الذي جحد الحركة الفكرية التي أطلقها القرآن ، وأطلع بها على العالم عصراً جديداً .

وقد سبق أن أشرنا ، إلى شيء من ذلك الذي كان يعامل به أصحاب الفكر ، ولا يزالون يعاملون به إلى الآن ، من الغَمْزِ واللَّمْزِ ، والتَّشكيك والاتِّهام ، ما بين صريح وَمُسْتَتِرٍ ، ومتردِّدٍ ومقدام . ومن تذوَّق شيئاً من تراثهم لا يكون أخذ ملكةَ العِلم ، ولُبَّ الفَهْم ، وإنما يكون حَوَّلَ تقليده ، من تقليد متخلِّف ، إلى تقليد أرفع قليلاً في غالب الأحيان ، دون أن يمسك بناصية العلم .

إن التَّخوف من الفكر ، قد يحمي المتحَصِّنَ به يوماً ما ، ولكن لن يحفظه إلى الأبد ، بل سيأتي اليوم الذي يحدث فيه الطوفان الذي يجرف الأخضر واليابس .

٤ ـ آفة اتِّباع الهوى :

هذه الآفة من ذرية الآفة الكبرى ، إذ حين يذهب العلم يَبْرُزُ الهَوَى ليقودَ ، وَيَلْمَحُ ذلك من الآيات التي تذكر الذين يتبعون أهواءهم ، قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ﴾ [القصص : ٢٨/٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الرُّوم : ٣٠/٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد : ٤٧/١٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٦/١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴾ [محمد : ٤٧/١٤]..

والإنسان حين لا يهتدي بسنن الله ، ولا يهتدي بالعلم والهدى الذي جاء من عند الله ، يميلُ به هواه ، لأنه فقَدَ الميزان ، فصار سهلاً عليه أن يَمِيلَ مع هَوَاهُ حيثُ لا يخشى سُنَّةً ولا عِلْماً . فكيف يخشاهما !... وهو لم يشعر بقوانينهما في الحياة ، وأسلوب كشفهما للباطل !... فلذا نجد أنَّ ضيق نظره ، والمحدودية في إدراكه ، يسهلان عليه اتِّباع الظُّنون وما تهواه نفسه ، دون أن يخشى نكيراً .

٥ ـ آفة اتِّباع الآباء :

إنَّ الذين يفقدون السُّنن والقوانين ، في أحـداث الكون وحوادث البشر ، يستبدلون تقاليد الآباء بالسُّنن !.. ولتقاليـد الآبـاء ، سلطـان قوي يأخذ بخانق البشر . وسلطـان الآبـاء ، يجب أن يَقِفَ عِنـدَ حَـدٍّ معيَّنٍ لا يتجاوزه ، وإلا كان وَبَالاً ومصيبة .

إن تُراثَ الآباءِ له أهميةٌ بالغةٌ إذا استُفيدَ منه ، إذ إنه يكون سبباً في تفادي إعادة الأخطاء ، والاستفادة ممـا كسبوه من تجـارب وخبرات خلال القرون . علينا أن لا نعرض عنها ، وإلا دفعنا ثمن مـا تعبوا فيـه مرة أخرى ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

ولكن إنْ تجاوز الأمر الاستفادة من العلم الـذي حصلوه ، إلى أن يصيروا هم العلم والسُّنَّة ، وهم قانون الله الذي لا يتغير ولا يتبدل ، فهنا يتحول ما كان عليه الآبـاء إلى أحجـار الرَّحى المـدلاة من الأعنـاق التي تعيق الحركـة وتتعب النفوس وترهِقُ الأجسـاد ، ويتحـول إلى الآصـار والأغلال : ﴿ إِنَّهُم أَلْفَوْا آباءَهُم ضَالِّينَ ☆ فَهُمْ عَلَى آثَـارِهِم يُهْرَعُونَ ﴾ [الصّافات : ٣٧/٦٩ـ٧٠] .

وأول ما يتبادر إلى الذهن عنـد الاطلاع على القرآن ، هو إدانـة اتِّباع الآباء في عمومه ، أكثر من مدح اتِّباع الآبـاء ، لأن إحلال الآبـاء

محل آيات الله وسننه ، أمر جذاب شديد الإغراء . ولهذا فالتحذير من اتّباع الآباء ، هو الظاهر في القرآن ، وهو أول ما يُبادِرُ المطَّلعَ عليه .

وللاستفادة مما كان عليه الآباء ، ينبغي أن يخضع ما كان عليه الآباءُ للعلم والهدى ، ويُجْرَى عليه التصحيحُ المطلوب دائماً .

وكذلك علينا أن لا نَملَّ ولا نَكِلَّ ، من بيان أن ما جرى على الآباء الأولين ، يمكن أن يجري على آباء الآخرين . فلولا أنه ، يمكن أن يحلَّ الآباء ، محلَّ العلم والقاعدة ، عند المسلمين أيضاً ، لما كان هناك فائدة من سوق الاستنكار على الأمم الماضية اتّباعهم لآبائهم ، ولو كان المسلمون معصومين ، من أن يتحول آباؤهم إلى عقبة أمام سنن الله . وأن يحلُّوا محل الآيات والسُّنن ، كما حصل لمن قبلهم ، لما ظهرت فائدة ذكر أولئك ، الذين حال بينهم وبين الحق ، اتّباعهم لآبائهم ، بالتكرار الذي ورد في القرآن الكريم .

يجري على الآباء والأبناء ما يجري على كل البشر ، في وقوعهم في الخطأ وفي اهتدائهم للصواب ، في قربهم من الحق وبعدهم عنه ، يخطئون ويصيبون ، لهذا فإن تصحيح ما يمكن أن يقع فيه الآباء من الخطأ ، إنما يكون بمراجعة آرائهم وما كانوا عليه ، واختبار ذلك وامتحانه على أساس القواعد والسُّنن .

لهذا على المسلم أيضاً ، أن لا يضع الآباء المسلمين ـ المتقدمين منهم والمتأخرين ـ مكان القواعد والسُّنن . ومهما أحسنّا الظَّن فيهم ، فإنهم ليسوا فوق أن نختبر ماهم عليه ، على أساس الآيات والسُّنن والعلم والقوانين .

والذين أعلنوا منهم أنهم لم يعودوا أهلاً للفهم والمعرفة ، حين أغلقوا باب الاجتهاد ، سدّوا منافذ الفكر ، وقالوا انطبقت القبور على أهل العلم والمعرفة ، هؤلاء كانوا صريحين أنهم ليسوا أهلاً لأن يُتَّبَعوا .

وكان كل من يخطر في باله أنه أهل للعلم والمعرفة ، يشعر بحرج عظيم ، فكأنه أساء للسلف الصالح ، أن يخرج من أخلافهم من يفهم أو يعقل عن الله آياته في الكتاب والآفاق والأنفس . فكأن الأمر الذي اتّخذ مسوّغاً لهم في هذا الموقف ، أن يبقى السلف الصالح في مكان الصدارة والمنزلة العالية . كأن هذه المنزلة ، لن يستحقوها إلا إذا ظل كل من يأتي بعدهم قزماً ، في أسفل سافلين . وكأن نعمة الله على البشر توقفت ، وكأن آيات الله في الآفاق والأنفس توقفت عن الظهور للبشر .

إن الأمراض التي نعيشها في مجال الفكر ، أمراض مميتة، قاطعة لطريق الحياة . أنا لاأشعر أني قربت إليك بعيداً ، فإن ضغط إرهاب

القرون الماضية في الفكر ، سيفٌ مسلّط على رؤوسنا . وإزالة هذا الكابوس ، لن تتمَّ إلا بجهود عظيمة ، من الدّأب في الدرس ، وفتح الأبصار والبصائر ، والسير في الأرض والنظر إلى ما خلق الله ، وكيف بدأ هذا الخلق . وهذه كلها لم نتعوّد عليها بعد ، بل لا نرى فيها كثيراً من الجدوى ، مهما تكرر النداء بها في آيات القرآن ، وبعث الهمم إليها .

يكفي ما نظرنا فيه إلى أنفسنا بالغرور ، من أننا ورثة علم الأولين والآخرين !... وأننا لم نعد في حاجة إلى أن نَشُدَّ رَحْلاً لطلب علم ، أو نخصص وقتاً لإعمال فكر ، أو أن يكون في العالم أحد ، يمكن أن يكون مظنة أن يكشف سنّة من سنن الله في الكون ، أو يَرَى آية من آياته في الآفاق والأنفس ، سواء كان من أهل الكتاب أو لم يكن . ولنخرج مما وقع فيه غيرنا فيما سبق من الزمان ، من أننا أحباء الله ، ولكن جواب الله لمثل هذا الظن قاطع : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة : ١٨/٥] .

وهكذا قصَّ الله علينا نفسية الماضين الجامدين من أهل الكتاب ، ونحن قد دخلنا إلى تلك الأجْحَار ، وعشنا فيها منحنين حتى تقلصت عضلاتنا ، مغمضين حتى صار نورُ الفكر يَغْشَيْنا ، ومع ذلك نزعم كما زعم الأولون ، من أننا : عبادُ الله المصطَفَوْن وأحباؤه المقرَّبون .

إننا لم ننظر إلى التاريخ البشري على أساس السُّنن ، وإنما نظرنا على أساس الخصوصيات والمحسوبيات ، وأن المجد ميراث من غير جد .

كل ذلك لأننا لم نفتح أبصارنا ، ولا نريد أن نبصر . وكأن العذاب بالذنوب لم ينطبق علينا ، وكأننا لسنا من البشر الذين خلقهم الله ويخضعون لسُننه . وكأننا لم نقرأ : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴾ [النساء : ١٢٣/٤] .

إن مثل هذا الفهم لم يترسخ في أذهاننا وأعماقنا ، وأسلوبُ نَقْدِنا لَمْ يُخْجِل بَعدُ غَبَاءَ المسلم ، فهو إلى الآن لا يزال يظن أنه على شيء ، ويحمل النقد على أنه نوع من الفخر بأنه اعتراف ، ولكن لما يَدْخُلِ الإيمانُ في القلوبِ بعدُ ، وحين نسمع كلماتِ إقبالٍ في كشف زَيْفِ المسلم ، نظنٌّ أنه غَيرُ جادٍّ ، وإنما هو يُداعِبُ خواطِرَنا ، ويُطَيِّبُ نفوسَنا ، ويُخَفِّفُ من هوانِنا ، كتعويضٍ يرفع وَطْأةَ الانقلابِ على العقبين . يقول محمد إقبال :

« إن كعبتنا عامرةٌ بأصنامنا ، وإن الكُفْرَ ليضحكُ من إسلامنا . وإن شيخنا قامَرَ بالإسلام في عشق الأصنام ، واتَّخذ خيط مِسْبَحَتِهِ من الزُّنار ، هو في سفر دائم مع مريديه ، وفي غفلة عن

حاجات أمته . الوعّاظ والصُّوفية عبدوا المناصب ، وأضاعوا حرمة الملّة البيضاء : واعظنا إلى بيت الصنم ناظر ، ومفتينا بالفتوى يتاجر »[1] .

وقال في هذا أيضاً : « إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعمين للدِّين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً . إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك ، لا اتّصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاةُ فَتُقْرَأُ عليك سورة ﴿ يس ﴾ لتموت بسهولة . فواعجباً ، لقد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة ، يتلى عليك الآن لتموت براحة وسهولة »[2] .

وربما كان ما أصيب به المسلمون من الجمود على رأي الآباء ، أقوى من جمود غيرهم من الأقوام ، لأن الآباء حلُّوا محلَّ الآيات ، سواء آيات الكتاب أو آيات الآفاق والأنفس .

والمسلمون من أشد الناس تقديساً لدينهم ، يَسْمُونَ به إلى درجة عالية من المثالية . وهذا تقديس حق . إلا أن هذا التقديس كله ، حين تحول إلى الآباء ، حمل معه قوته وعمقه ، فصار التمسك بما عليه الآباء ، وقبوله مع كل علاّته ، وإضفاء طابع العصمة ، سبباً في جعل

---

(١) إقبال . لعبد الوهاب عزام ، ص ١٢٤

(١) مجلة الدعوة . العدد ٢١٥ ـ ٢٦ شعبان ١٣٧٤ هـ .

المسلمين أبعـد من غيرهم ، في إمكان رؤيـة مكان الخطـأ في آبـائهم الأولين . ويخطر لي كثيراً أن هـذا ، هو السبب في بطء التقدم الـذي يحرزه المسلمون ، في رفع مستـواهم أمـام هـذا العـالم المتسابق في تنظيم الحيـاة . بينما الـوثنيـون ـ كاليـابـان مثـلاً ـ كانـوا أقـدر على إثبـات وجودهم . إنه ربما كان تقديسهم لمواريثهم الآبائية ، ليس له من الجلال والدعم ، مثل الذي كان للمسلمين ، وما أقرّوه من ذلك بوسائل تربوية وثقافية متشابكة الأطراف . وهـذا مـا مكَّن قـادَةَ اليـابـان من التغلُّب على مشاكل تغيير ما بالنفس ، أو مكَّنهم من التلاؤم في تسخير الوسـائل الجديدة للأهداف القديمة .

وكل التحـذير الـذي يـوجهـه القرآن إلى اتبـاع الآبـاء ، حملـه المسلمون على غيرهم . كأن مشكلة اتباع الآباء ، ليست مشكلة إنسانية ، أوْ أنَّ ضَرَرَها لا يمكن أن يلحق المسلمين . فهذه الغفلة عن هذه السُّنَّة ، وحمل الآيات ـ التي تحذر من اتِّبـاع الآبـاء على غير بصيرة ـ على الأمم السابقة ، كل هذا أفقد المسلمين قيمة التحذير من اتِّبـاع الآبـاء . فبقيت الآيات في الكتاب ، ولكن لم ينتفعوا منها بشيء وهـذا مثل واضح عن فقدان الكتاب قيمته الإصلاحيـة حين يعجز البشر عن التفـاعل معـه . ومن هنا تبرز أهمية إدراك العلاقة ، بين ما بالنفس وآيات الكتاب .

فحين نعلو بآيات الكتاب إلى أرفع المستويات ، دون أن نفطن إلى الشروط النفسية عند الإنسان ، تقع في حَيرة ، ويخفى علينا موطنُ المشكلة ، ويتداخلُ الأمرُ . فَيَنْسُبُ من يَنْسُب ، تخلفَ المسلمين إلى الإسلام ، فَيُصَدِّق من لا يعلم ، ويتشكّك من لم يتمكّن من العلم ، وينبري المحامون عن الإسلام في الدفاع عنه ، ولكن لا يخطر لهم ، أن المشكلة في الإنسان وليست في المبدأ ، وأن اختلاط المبدأ بالبشر - حيث صار البشر في مكان المبدأ - لا يجعل للنقد والدفاع ، ثمرة مرجوة .

ولو أن مكان المشكلة تحدد بوضوح ، لحصل السعي للتعرف على كيفية تغيير ما بالنفس ، وما ينبغي أن نغيّره . فهنا موطن الدّاء . ونحن لا نحسن فهم المشكلة ، ولا نخضعها للسّنن النفسية وإنما نتركها للمُصادَفة .

ولقد حرصت في أكثر من مناسبة ، أن أقرب إلى الوعي ؛ كيف يفقد الإنسان الاستفادة من آيات الكتاب . وأعود هنا لأذكر مرة أخرى أيضاً ، ما يمكن أن يتهم به ، ما كدنا نقربه إلى الوعي ، من أن هذه الآيات تنطبق على المسلمين ، كما تنطبق على غيرهم .

إذ يعترض المعترض على هذا بأن يقول : كَيْفَ لَمْ يُفْهَمْ هذا ؟

وكيف خفي على الأجيال ؟ فهو إن لم يعترض بهذا صراحة ، فإنه يَحْمله في طيّاتِ نفسه بحيث يمنعه من أن يأخذ هذا النقد مأخذَ الجدّ .

وأكرر الجواب أيضاً ، بأن المشكلة ليست مشكلة الأجيال الماضية وفهمهم ، وإنما مشكلة ضياع الأجيال الحاضرة وعطالتهم ، والسؤال :

﴿ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُوْلَى ﴾ ؟ جوابه : ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى ﴾ [طه : ٢٠/٥٢] . ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٢/١٣٤] . وهؤلاء قد لا يكونون مؤاخذين عند الله ، وقد يكون مغفوراً لهم ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . ثم لم يكن كلهم كذلك ، وإنما نحن اتَّبعنا الذين أخطؤوا دون الذين أصابوا .

والقرآن الكريم يزكّي اتّباعَ الآباء فيما إذا خضع ما عند الآباء للبرهان ، وعند ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ١٢/٣٨] .

وقال تعالى ، عن الذين يقدمون ما عليه الآباء على الكتاب

ـ مهما كانت حجتهم بأنهم يعلمون ما لا نعلم ـ قال الله فيهم : ﴿ وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠/٢] . فإن من لا يقدر على التمييز بين القاعدة والشخص ، يفتح على نفسه باب التّيه .
والنجاة من هذا التّيه ، تكون بإخضاع ما عليه الآباء للعقل والقاعدة . وهذا العمل هو الذي يجعل الفائدة من تراث الآباء مضمونة ، مع تفادي ما يمكن أن ينتج عنه من ضرر . وقال الذين يكتفون بما وجدوا عليه آباءهم إزاء دعوة الكتاب لهم :

﴿ وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كَانَ آباؤهُم لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٤/٥] .

ولخطورة الآبائية يكرر الله أقوالهم فيقول تعالى :

﴿ وَإِذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آباءَنا ﴾ [الأعراف : ٢٨/٧] .

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا ﴾ [يونس : ٧٨/١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آباؤنا ﴾ [الأعراف : ٧٠/٧١] .

فإذا نزعنا عن هذه الأعراض صفة الخصوصية ، ونظرنا إليها على أنها مواقف تابعة لما بأنفس القوم الذين شأنهم هذا ، نعرف كيف تتشابه دوافع النفوس في اتخاذ مواقف متحدة . فإذا تجاوزنا هذا المستوى من البحث ، ونزلنا إلى مستوى العوام من النساء والرجال - في استعبادهم للعادات والتقاليد الخرافية الحديثة منها والقديمة ، في صورة لا مجال فيها لأي فكر أو عقل أو محاكمة البتة - نرى ذلك ، أو نسمع كل يوم حين يقولون : « الناس كلهم هكذا » ، وطبعاً كلمة « الناس كلهم هكذا » ، هي الكلمة المقابلة لقوله تعالى : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آباءَنا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشُّعراء : ٢٦/٤٧] ، وإن اختلفت العبارات ، فإن الدوافع في النفوس تخضع لقاعدة واحدة .

تحدثنا هنا ، عن الآفات التي تحول بين العقل والسُّنن ، وذكرنا الإعراض والتكذيب والغفلة ، واتِّباع الهوى ، واتِّباع الآباء . ومنها أيضاً ، الغرور بما عندهم من العلم ، أو الأولاد ، أو الأموال كارتفاع مستوى الدَّخل ، أو القوى البشرية المستغلة . كل هذه تحول بين الإنسان وإدراك الحقيقة ، وتُمَكِّنُه من التَّعامي وتجاهل الحقيقة .

إن هذه الآفات ، كلها ذرية الآفة الأساسية ، آفة ظن أن الله لم يجعل لهذا الكون سُنناً ، إذا اتَّبعها الإنسان يمكنه أن يستمطر رحمة الله ، وبتجاهلها يتعرض للهلاك .

فالغفلة عن إدراك هذا النظام الربّاني المودع في الكون ، يفقد الإنسان ميزته الأساسية ، وأمانته التي حمّله الله إياها ، والسلطان الذي أعطاه الله تعالى له ، لتسخير ما خلق الله له . ويصير هذا الإنسان المكرم في أسفل سافلين ، بل يصير الإنسان نفسه مسخّراً للذين يعلمون سنن الله .

والإنسان حين لا يدرك أن للكون نظاماً ، وللعقل سلطاناً ، يعيش في فوضى . تأتيه النكبات تلو النكبات ، ولا يعرف لها سبباً معقولاً ، ولا يشعر أنه إنما يصيبه ذلك لأنه عطل ما أودع الله فيه من قوى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النّحل : ٣٣/١٦] .

وهذا المسلم بعد ذلك ، يتفنّن في اختراع أسباب لتفسير الأحداث ، فهو إن لم يعلق السبب بالنجوم ، فلا جناح عليه أن يرى ذلك في الزمان الذي أشرف على نهايته ، وإن تجاوز مشكلة الزمان ، فمشيئة الله تعالى وإرادته جاهزة . فهذه المشيئة هي التي تفعل هذه الأمور التي لا يحبها ، ولا يرى فيها معقولية . وهذا السند ، هو المِشْجَب الأساسي الذي يعلق به المسلمون كل مهازلهم التي يصابون بها . ويجدون بذلك ، نوعاً من الراحة والطمأنينة في رفع المسؤولية عن أنفسهم . كما يغريهم بهذا الاتجاه ، ما يَلبسون به نظرتهم من تعظيم الله

ليثبتوا له حرية الإرادة والمشيئة المطلقة . كأن هذه لا تثبت له ، إلا بالتصرف الذي لا معقولية فيه ولا نظام . هذا ، فضلاً عن سلب الحكمة عن مشيئة الله تعالى وإرادته . كما وأن نظرتهم هذه ، فيها سلب للقدرة التي منحها الله للبشر ، على تغيير ما بأنفسهم وتغيير واقعهم .

إن الخلط العجيب ، بين سلطان الله وما منح الله البشر - من تمكين في توجيه حياتهم ، وعدم رؤية الجمال الذي أعطي للإنسان - يبطل النظام الذي أبدعه الله لحياة البشر .

وأحياناً ، يميل المسلم إلى الحطّ من قيمة قدرة الإنسان ، ليبقي لله عظمته . فكأن عجز الإنسان ، هو الذي يثبت عظمة الله . لهذا يتخوّف من القدرات التي تتفتح أمام الإنسان ، ومن الإمكانيات التي يظهر فيها سلطانه . ولو أن المسلم تأمّل قليلاً ، لما شعر بأن زيادة سلطان الإنسان ، تقلّل من عظمة الله ، بل من جلال الله سبحانه وتعالى ، أن يمنح عبده هذه القدرات .

لكن نظرة المسلم في هذا الموضوع ، شابها كثير من الأخلاط على مرّ العصور ، من جبرية ، ومرجئة ، وقدرية ، ونماذج أخرى من أقطاب وأبدال ، وشخوص محدثة ، أو من هم أقدم قليلاً ، يَلْتَجِئُ إليهم عند المصائب ، والأمور المدلهمّة ، ليفتوا في العقيدة والاجتماع وأمور الدنيا والآخرة .

إن الفوضى الفكرية والعملية ، التي يعيشها المسلمون ، ترشح من هذا المستنقع ، الذي اجتمع فيه ما هبَّ ودبَّ . ومما يتصل بانقطاع الصلة بين العقل والسُّنن في المجتمع الإسلامي ، وكشاهد على ذلك ، أني كنت منذ وقت قريب ، مع نخبة طيبة من الشباب الذين يُحِبُّونَ الإسلامَ جَهْدَ طاقتهم ، ويتألمون لوضع المسلمين . وكان البحث في مشكلة المسلمين ، فكأنهم رغبوا أن يسمعوا مني رأياً في هذا الموضوع فقلت : إن في نفسي شيئاً في هذا الموضوع ، ولكن لاأعرف كيف سأعرضه عليكم بمبرراته ، لذا أشعر أني لست متمكناً من نقله إليكم . وبعد محاولة لتقريبه إليهم ، قلت مامعناه : كأن شيئاً ينقصنا لتغيير هذا الإنسان ! ولو أننا كشفناه فإنه يسهم في إزالةِ هذا العجز الذي يتصف به المسلم . فلاحَظْتُ أن أحدهم التَقَطَ في ذَكاء ماأقصدُ إليه ، ولعله لما يعلم عني من اتجاهٍ ؛ في أن مشكلة المسلمين يمكن أن تخضع للعلم . قال : هل تعني أن يخضع ذلك لقواعد علم محدد ؟ فقلت بشيء من الشعور بخيبة الأمل ، وبشيء من الإخفاق والخجل : لعل هذا هو الذي أريد . فكأنه بحركة بسيطة عدل بها من جلسته ، وبنغمة صوتية خفيفة ، أفهمَني أن هذا الأمر ليس كذلك . وشعرت بزهده الشديد ويأسه ، من أن يكون هذا الاتجاه في النظر إلى المشكلة يأتي بشيء له جدوى .

أجدني في أحيان كثيرة في حَيرة ـ وإن كان هذا يمكن أن يُرَدَّ إلى

عدم تمكُّني من الموضوع ـ من أمري ، كيف سأقنع الشباب بأسلوب علمي جديد ، بما قاله ابن الوردي قديماً : « في ازدياد العلم إرغام العِدا » ، من أننا إذا زدنا معرفة وخبرة فإن هذه الزيادة في المعرفة تزيد كفايتنا في أداء أعمالنا أياً كان هذا العمل . فكأننا لا نقرُّ أن كيان الإنسان المعنوي يتكون من مجموع اللحظات التي امتص فيها المعرفة بشعور منه أو دون شعور .

في الواقع إن وضع هذا الأمر تحت إدراك الوعي يسهم في تغيير الموقف . إن هذا الزهد الشديد الذي عندنا في السعي لطلب المعرفة ، ما هو إلا ذرية هذه الآفة التي نبحثها ، آفة عدم رؤية السُّنن في نظام الكون ، وعلاقة العقل الإنساني بهذه السُّنن كعلاقة تسخيرية .

وإن ظاهرة الضجر التي عندنا ، في مطالعة موضوع يحتاج إلى جهد فكري في التأمل ، راجع إلى تلك العقيدة ، عن علاقة الإنسان بنظام الكون . وما أسرع ما نتهم البحوث الجديدة بالتعقيد والإغلاق ، كأن عقولنا لم تعد تتذوق طعم الأغذية الفكرية الجيدة ، لطول ما تعودنا على العلف الذي ذكره إقبال في الأَسْرَارِ والرُّموزِ :

جَوْهَرُ الآسَادِ أضْحَى خَزَفا   حِيْنَ صَارَ القُوتُ هَذا العَلَفا

ذكر إقبال في هذه القصيدة نماذج من المواعظ التي يتلقاها

المسلم ، الذي لم يَعُدْ لهُ مهمّةٌ في هذه الحياة ، ليعطي له نوعاً من المبرر للوجود أيّاً كان هذا الوجود . ذكر ذلك إقبال على لسان الكبش الـذي ادّعى الإلهام ، وأنه مرسل كرسول لأولئك الأقوام الـذين من عقيـدتهم تسخير قوى هـذا الكون لشريعـة ربٍّ العـالمين ، ووضـع إقبـال عنـوان هذه القصيـدة : « قِصَّـةٌ في معنى أن مسـألـة نَفْيِ الـذّات من مخترعـات الأُمَمِ المغلوبة لِتُضْعِفَ الأُمَمَ الغالبة بهذِهِ الطريقةِ الْخَفِيَّة » .

ونفي الذات وإثبات الذات محور فلسفة إقبـال . ويعني بـذلـك إظهـار مـا أودع الله في هـذا الإنسـان من قـوى ، فهـذا إثبـات الـذات وإهمال تلك القوى هو رموز نفي الذات .

الفِعْلُ والانْفِعالُ

سبق أن ألمحنا إلى أنَّ كثيراً من أعضاء الجسمِ تَعْمَلُ آلياً دون تدخل الإرادة ، وقلنا كذلك إنَّ الأفكار التي بالنفس تتفاوت في درجة العمق والتغلغل .

وهذه المفاهيم التي تعمقت ، تقوم في كثير من الأحيان بأعمال آلية دون تدخل الفكرِ الواعي عند الإنسان . بل يفقد الإنسان صوابه وإرادته عند الغضب والانفعال ، أو تضعف إرادته بدرجات متفاوتة . وفي هذه الحالة يتصرف الإنسان على أساس دوافعه المتغلغلة ، ويقل تدخل القدرة الواعية أو يكف بالمرة . فلهذا يُوصَى القاضي أن لا يحكم أثناء غضبه .

إن أصول هذا الموضوع ثابتة لا تنكر ، ولكن فروعه وتطبيقاته متشعبة في نواحي الحياة تشعباً كبيراً . فمثلاً قد نرى في الطرقات أشخاصاً يطاردون الأطفال ، لأن الأطفال كشفوا فيهم بعض نواحي الضعف ، كأن ينادوهم بألقاب معينة تثيرهم . إن الأطفال هنا كشفوا ضعفاً في إرادة الإنسان ، فيخرجونه من طوره الواعي بسهولة ، إذ اهتدوا إلى النقطة التي تثيره ، أو إلى الزر الذي إن ضغط عليه حدث

لدى هؤلاء استجابات معينة . حقاً إن هؤلاء جديرون بالرثاء ، لأن الأطفال يتحكمون بانفعالاتهم .

ولكن يا ترى هل يمكننا أن نرى أننا نحمل في أنفسنا مثل هذه الأزرار ؟ إن كَشَفَ أحَدٌ كيفَ يضغطُ عليها يُثيرُنا أيضاً : وإن لم يكن في مستوى مطاردة الأطفال في الطريق ، ونخرج أيضاً عن طورنا . إن هذه الأزرار موجودة عند كل الناس ، ولكن لا يستطيع كل واحد أن يضغط عليها ، ولا كل من ضغط يمكن أن يحدث الانفعال نفسه . فقد يذهب بعضُ الناس إلى إنسان يريدون إثارَتَهُ فَيَذُمُّونَ له رأياً ، أويستخفُّون من شيء يقدِّسه حتى تغلي مراجل قلبه ، فيخرجون من التَّباحثِ إلى التَّهاتُر والتَّشاتُم ، وقد يَنْتَقِلُون من استخدام اللسانِ إلى استخدامِ الأيدي .

ولكن لنفرض أن هذا الذي أرادَ الآخرون إثارته ، جاءه من يخبره بقصدهم ، فلا شك أنه سيرجعهم مخفقين ، بتماسكه أمام لُعْبَتِهم حينَ أصبحَ عَلَى وَعْيٍ مِن قَصْدِهِم .

وهذه المرتبة من التماسك والنضج ، يمكن أن يصل إليها الإنسان بجهده حين تزداد معرفته وتتسع خبرته بالناس والحياة ، فلا يترك لأحد سلطاناً على أعصابه وانفعالاته .

وقد يكون الـذين ذهبوا إليـه لا يقصـدون إثـارتـه ، ومع ذلـك يتهـاتر الطرفـان لأن الأزرار المكشوفـة تحـدث الانفعـالات بـالضغـط عليها ، ولو بغير قصد الإثارة ، فكثير من اللقـاءات تُجْـدِب لمثل هـذه الحوادث المؤسفة .

فإذا خرجنا من هذه الأمثلة التي يقوم بها الأطفال في الشـارع ، ومن الأمثلـة التي يقـوم بهـا بعض الأذكيـاء الخبثـاء في مستـوى إثــارة شخص معين ، يمكن أن ننتقل إلى مستوى المجتمعات التي تحمل مواريث معينة في فهم الحياة والكون .

إن هذه المجتمعات تنطبق عليها الفكرة نفسها في إمكانية الإثارة . فإن كان يمكن رؤية بعض البسطاء ، فإنه يمكن رؤية زمرة من الناس دربهم الكبـار على التلاعب بـالمجتمعـات وإثـارتهـا ، ليـؤدوا دورهم ، في الـوقت المحـدد ، في مجتمعـاتٍ مـا تـزالُ بسيطـةً لم تبلُـغْ مَرحَلَـةَ النُضْـجِ والرُشْد . فإذا جاء هـذا الوقت ألقى الأخصـائيون (فتّيشـة)[1] تنفجر تحت أقـدام المجتمع فتخرجـه عن طوره ، ليضربـوه على أثر ذلـك ضربـاً مؤلمـاً ، أو ليظهروه أمـام العـالَم مَسْخَرَةً لا يملـك إرادة ، وإنمـا هـو في

(١) الفتّيشة في عامية أهل الشام هي نوع من ألعاب المفرقعات يلعب بهـا الصبيـان في الأعياد ، ويطلقونها مجازاً على تصرفات بعض الأذكياء الخبثـاء للإيقـاع بين النـاس والوصول إلى أغراضهم .

صورة وحش ، ينبغي أن تُقَيِّدَ حدودُ إمكانياته . ويكون هذا سبباً في تبرير ما يقومون به من إجراءات للحد من حرية حركته أو الحجز عليه كالسفهاء . إن العرف يقرُّ الحجر على السفيه ، ولكن العرف لم ينتبه إلى إمكانية إبقاء السفيه سفيهاً ، بل وزيادة سفهه . فإذا تنبَّه المجتمع إلى ذلك ، قام بعمل يزولُ معه خُبْثُ الأذكياء المُدَرَّبينَ للتلاعب بالشعوب . وكان لورانس مثلاً ممتازاً في الإنسان المدرَّب على إثارة عواطف مجتمع في الاتجاه الذي يريده ، لتسخيره .

ولعله من المناسب أن نستأنس هنا بما قاله جمال الدِّين الأفغاني في خاطراته ، بمناسبة أحداث السودان يومذاك : « من أن بريطانيا أخرجت من جرابها ألعوبة (حصار كوردون) ، فأصدرت أوامرها إلى المصانع ، ليباشروا مدَّ سكة حديد سواكن إلى بربر ... وتزعم أن لا باعث لها على ذلك إلا الرغبة في تخليص كوردون إن كان في خطر » .

إذا فرضنا هلاكه ـ كما هو الغالب ـ أو خلاصه ، فهل تهدم دولة إنكلترا طريق الحديد أو تتبرع بها لمصر سخاءً ؟ كلا والله . لا هذا ولا ذاك ، ولكنْ طريق للاستيلاء على السودان .

قال المخزومي : أتيت يوماً لجمال الدين وكاشفته بقولي : « هذه

المقالـة نقلتهـا إلى (الخـاطرات) حسب إشـارتـك ، ولكن توقفت عن نقل مـا تبقى ، لأنني مـا رأيت جـدوى في نقل حـوادث جرت وانقضى أمرها وكاد الناس أن ينسوها ، ولا فائدة من إعادة ذكرها » .

سمع لي جمال الـدين بإصغـاء ، ولمـا انتهيت قـال : يـا شيخ بني مخـزوم ، وعـزة الحـق : إن مـا تراه اليـوم من الفضـول بـذكر حـوادث مضت ، وأعمـال أتى بهـا الإنكليز في مصر والهنـد إن مضت أعيـانهـا ، فستـأتي أشكالهـا وأمثـالهـا . فبريطـانيـا لا تفتر تحـدث فتوقـاً في البلاد فتدخل من أضيقهـا فتوسعـه ، وترقب أصغر حـدث فتجسمـه ، وتعمل على شقّ عصا القوم ، وتقسمهم أحزابـاً وتكون نصير المتبـاغضين . سُنـةً جَرَتْ عليها دولة بريطانيا ورجالها فلا يحيدون عنها »[1] .

لم يكن همّ الأفغاني ذكر الأحـداث ، ولكن التنبـه إلى السُّنـة التي تتبعها بريطـانيـا مع الشعوب . ويظهر تـألم الأفغـاني من عـدم فطنـة المخزومي إلى هذا القصد . ويعرف الأفغاني أنها إن مضت أعيانها فستأتي أشكالها وأمثـالهـا . وحقـاً إن إنكلترا أخرجت من جرابهـا بعـد عشرين عـامـاً من هـذا الحـدث ، حـاويـاً آخر في الـوقت المنـاسب ، كما قـال مالك بن نبي : « عرف الأوربي كيف يختار السياسة التي تناسب تلـك

(١) الخاطرات ، ص ٢٧٨ ، طبع دار الفكر بدمشق ، ١٩٦٥ م .

الساعة ، وهو الذي يتمتع بالمقدرة الانتهازية الجبليَّة الفطرية ، فعرف لورانس مثلاً ـ في الساعة التي هددَ فيها (فون أرمين) قناة السويس ١٩١٥ م ـ كيف يثير الثورة العربية المشهورة ، حين دلَّل ضعف الشيخوخة لدى عجوز ، هو الشريف حسين ، وتملق حفنة من الزعماء الشباب المخمورين بفكرة المملكة العربية »[1] .

إن كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) فيه تفاصيل دقيقة ، كيف قام لورانس بالمهمة على أحسن وجه ، وكيف استغل عدا ما أشار إليه مالك ، بَدْوَ الصحراء الذين لا نعرف لهم قيمة ، واختار منهم حرسه الخاص ، مئة من الشبان الأشداء ، كلهم ماتوا في سبيل حماية لورانس ما عدا بضعة نفر منهم .. وقد خاض نيفاً وثلاثين معركة في سبيل بريطانيا ، ولكن دون أن تراق قطرة دم بريطاني .

ولا فائدة من ذكر هذه الأحداث إن لم تُحصِّنّا من الوقوع في أمثالها .

ولن يحصّننا إلا تَفَهُّمُ السُّنَنِ المسَخَّرَةِ للإنسان ، وإلا سنظلُّ مسخَّرين لمن يعرفونها . ولن نصل إلى السُّنن ، إلا إذا كابدنا دراسة واسعة للأحداث ضمن هدف محدد ، غير مجرد الاطّلاع .

---

(١) مالك بن نبي ، فكرة الإفريقية الآسيوية ص ٢٣ ، ط٢ ، دار الفكر دمشق ١٩٩٢

والشيء الذي يجب أن نستفيد منه في هذا الموضوع هو ، أن ترك المجتمع دون رفع مستواه يعرضه لأن يبقى في مستوى المعتوهين . قد يكون عَتَهُ بعضِ الأفراد طبيعياً ، مع إمكان تقليل عددهم إلى حدٍّ أدنى . ولكنَّ عَتَهَ المجتمع ليس طبيعياً ، وإنما هو عَتَهٌ من صنع أيديهم : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ ﴾ [النّحل : ٣٣/١٦] .

إن إدخال سنن هذه القضايا في وعي الإنسان ، وإدخال هذه الآليات النفسية إلى مستوى الوعي ، واستبدال هذه الآليات بآليات أخرى ، أمر يستحق انتباهنا . لأن في الإمكان غرس الأفكار في مستويات معينة في درجة العمق والآلية .

إن تغيير الشعور واللاشعور صار ممكناً الآن . وقد يعجز الفرد أن يغيِّر شعوره ، أو أن قدرته على ذلك ليست مطلقة ، ولكن المجتمع له القدرة على تغيير ما بنفس أفراده ، مهما كان ما بالنفس سطحياً أو عميقاً ، لأن هذا علم . وهذا العلم هو موضوع آية البحث في هذا الكتاب .

مثلاً حين يقول أحد زعماء الصين : « إن الذي كان علينا أن نقوم به من توعية للشعب إلى الخطر الذي يحيط به ، لم نقم نحن به ، وإنما قام العدو بهذه التوعية حين صارت قنابله تسقط على الشعب ،

وربما إلى الآن الذين لم تصلهم القنابل لم يتوعوا بعد إلى الخطر » .

هذا الزعيم يشعر أنه كان في الإمكان نقل هذا الخطر إلى ضمير كل فرد قبل سقوط القنابل ، ولكن لم يقوموا به ، فيشعر بالتقصير إزاء ذلك . لما نشأ مثل هذا الفهم عندهم ، استطاعوا أن ينقذوا شعبهم من أن يكون قصعة ، يتداعى إليها اليابان والروس والأمريكان ، الذين صاروا الآن يفكرون كيف يخطبون ودّه رغبةً ورهبة .

إن تلقين ضمير الجماهير إزاء الأخطار ، علم يقوم به الاختصاصيون في عالم يعي كيف تسير الأمور .

إن لا مبالاة الفلاح بالنظافة ، وما يجلب ذلك من أوبئة ، مشكلة ينبغي أن تعالج ، وأن يعلم من يعالج ، علم تلقين الضمير ، علم تغيير ما بأعماق النفس .

إن كنا نضرب المثل بالنظافة فهذا مثل ، ولكن المشكلة أن يظل الإنسان في عالم اللامبالاة في مصيره في هذا العالم ومصيره في الآخرة .

وحين يصبح التلاعب بأفكار المجتمعات وتوجيهها إلى حيث يراد ، علماً منسقاً له دوائره وعلماؤه ، ومؤسساته ، وحين يؤلف كتاب في مثل هذا الموضوع عنوانه : (اغتصاب ضمير الجماهير) ، حين يتم كل

ذلك ، لا بدّ أن يصير عند هذه المجتمعات علم آخر تتحصن به ضدّ هذه التوجيهات وذلك الاغتصاب .

إن مرحلة عطالة عقل الإنسان ، وعدم رؤية سنة الله في الكون والبشر ، هي المرحلة الخطيرة . وهذه المشكلة هي التي تُبْرِز لنا يومياً مواليد وذريات من المصائب ، نعتبرها أنها أخطر مرحلة .

إننا دخلنا أخطر مرحلة ، حين أقفلنا العقول منذ زمان بعيد ، هناك كنا نقيم ببطء حول أعناقنا الطوق الحجري الذي سيرهق حياتنا في المستقبل .

إن علم تغيير ما بالنفس وما ينبغي أن نغيِّره ، والزمن الذي يحتاج إليه إذا استخدمت الإمكانيات بكفاية ، هذا العلم هو الذي يخرجنا من الحيرة التي نعيش فيها .

فإن لم يتيسر لنا أن نفهم هذا ، ولم يتيسر لنا من يقدم لنا الحجج الكافية للإقناع في هذا الموضوع ، فسنظل نعيش في عالم لا نشعر أنه يخضع لسنن ، وسنصاب بالعطالة التي تشل نشاطنا .

المنهج والتطبيق

في هذا البحث الذي أعرضه من خلال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ، حاولت أن أبرز جانبين رأيت لهما من الأهمية ما يجعلهما يستحقان هذا الإبراز الخاص . وفي الواقع سواء في كتاب (مذهب ابن آدم الأول) أو في هذا الكتاب ، لا أقول إني عرضت فيهما شيئاً لم أسبق إليه . وإنما حاولت أن ألقي ضوءاً خاصاً على المواضيع التي أرى لها الأهمية والأولوية في البحث عن غيرها ، لأني أعلم أن القارئ المسلم العادي قد يمر بهذه المواضيع ولكن لا يشعر بما لها من الأهمية . فحين تمرُّ هذه المواضيع من خلال بحوث متشابهة في نظره ، لا يستطيع أن يعطيها من الأهمية ما تستحق ، فلهذا أريد أن أجعل عند بعض هذه النقاط التي وردت في مؤلفات أهل الثقة محطة توقف وتأمل .

ولقد كان بعض الذين كنت أتحدث إليهم يشعرون بشيء من الريبة والدهشة ، حين أستشهد بأقوال الثقات التي تدعمُ وجهة النظر هذه ، وكأن لسان حالهم يقول : لم نفهم منهم الذي تقوله .

وهذا بالذات ماقصدته من إبراز هذه النقاط في أضواء خاصة . والجانبان اللذان حاولت إبرازهما في هذا البحث :

١ ـ جانب فصل القاعدة عن التطبيق .

٢ ـ جانب تعميم السُّنة .

١ ـ جانب فصل القاعدة عن التطبيق :

إن التطبيق قد يكون قريباً من القاعدة أو بعيداً عنها بصورة متفاوتة ، فالتطبيق قد يساعد على فهم القاعدة ، ولكن القاعدة بحدِّ ذاتها لها من قوة السُّنَّةِ ما يجعلها تتصف بقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ ، أما التطبيقات فتتفاوت كثيراً . وبعبارة أخرى : التفريق بين النظرية والتاريخ ، على اعتبار أن النظرية هي القاعدة والتاريخ هو التطبيق .

وبعبارة ثالثة أيضاً التفريق بين الإسلام والمسلمين ، فالإسلام سُنَّة وقاعدة ، والمسلمون تطبيق وتاريخ . وهم مثال على القاعدة ، ليس لهم من الحصانة ما يجعلهم يحتلون محل القاعدة . فلهذا علينا أن نفرق بين هذين الأمرين في مجال تصدّينا لبحث مشكلة تخلف المسلمين . ولا أقصد من ذلك أن المثال والتطبيق لا قيمة لهما في هذا ، بل قد تستنبط القاعدة من الأمثلة ، وكثيراً ما نضطر أن نقدم القاعدة

ضمن أمثلة ولا سيا في أول الأمر . ولكن القاعدة لها من القوة أن تشمل أمثلة لا تعدّ ولا تحصى . ولهذا حاولت أن أفصل بين الإسلام والمسلمين ، أو بين الإسلام ديناً مُنَزَّلاً ، وبين تاريخ المسلمين على مرّ العصور ، بحيث لا نظن أن تاريخ أعمال المسلمين هو الإسلام ، الذي له الحصانة والمناعة الذاتية الموهوبة له من الله تعالى .

هذا الذي كنت أقصد إليه حين حاولت أن أرد المسلم إلى القاعدة الإسلامية ، بصرف النظر عن موقف الملايين خلال المئات من السنين .

وهذا الموضوع لم يكن خافياً على الكتاب الكبار ، ولا أنهم لم يتعرضوا له . ولكن ربما لم يبرزوه في مؤلف خاص ، ولا حاولوا أن يمسكوا المسلم ، ويفتحوا له عينه ليقطروا له ، إذ كثيراً ما يعجز المسلم عن فهم الموضوع ، إن لم يقم الكاتب بعملية رفع الجفن ووضع القطرة في العين .

وهنا أستشهد بكلمة في هذا الموضوع للأستاذ سيد قطب الذي له من المكانة عند الشباب الإسلامي قلّ أن توفرت لغيره من الكتاب . قال رحمه الله رحمة واسعة ، في التعقيب الأخير من تعقيباته على غزوة أُحد ، في تفسير آل عمران : « ... وهناك حقيقة أخيرة نتعلمها من

التعقيب القرآني على مواقف الجماعة المسلمة ، التي صاحبت رسول الله ﷺ والتي تمثل أكرم رجال هذه الأمة على الله ، وهي حقيقة نافعة لنا في طريقنا إلى استئناف حياة إسلامية بعون الله .

إن منهج الله ثابت وقيمه وموازينه ثابتة . والبشر يبعدون أو يقربون من هذا المنهج ، ويخطئون ويصيبون في قواعد التصور وقواعد التطبيق والسلوك ، ولكن ليس شيء من أخطائهم محسوباً على المنهج ، ولا مغيراً لقيمه وموازينه الثابتة .

وحين يخطئ البشر في التصور أو السلوك ، فإنه يصفهم بالخطأ ، وحين ينحرفون عنه فإنه يصفهم بالانحراف ، ولا يتغاضى عن خطئهم ـ مهما تكن منازلهم وأقدارهم ـ ولا ينحرف هو ليجاري انحرافهم .

ونتعلم نحن من هذا ، أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج ، وأنه من الخير للأمة الإسلامية أن تبقى مبادئ منهجها سليمة ناصعة قاطعة . وأن يوصف المخطئون المنحرفون عنها بالوصف الذي يستحقونه ـ أيّاً كانوا ـ وألا تبرر أخطاؤهم وانحرافاتهم أبداً بتحريف المنهج وتبديل قيمه وموازينه ، فهذا التحريف والتبديل أخطر على الإسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ أو الانحراف ... فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص ، والواقع التاريخي للإسلام ليس هو

كل فعل وكل وضع صنعه المسلمون في تاريخهم . وإنما هو كل وضع وكل فعل صنعوه موافقاً تمام الموافقة للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة .

وإلا فهو خطأ أو انحراف لا يحسب على الإسلام وعلى تاريخ الإسلام ، إنما يحسب على أصحابه وحدهم ، ويوصف أصحابه بالوصف الذي يستحقونه من خطأ أو انحراف أو خروج على الإسلام .. إن تاريخ الإسلام ليس هو تاريخ المسلمين ولو كانوا مسلمين بالاسم أو باللسان ، إن تاريخ الإسلام هو تاريخ التطبيق الحقيقي للإسلام في تصورات الناس وسلوكهم ، وفي أوضاع حياتهم ، ونظام مجتمعاتهم[1] . فالإسلام محور ثابت تدور حوله حياة الناس في إطار ثابت ، فإذا هم خرجوا من هذا الإطار أو إذا هم تركوا ذلك المحور بتاتاً فما للإسلام ومالهم يومئذٍ ؟ وما لتصرفاتهم وأعمالهم تحسب على الإسلام أو يفسر بها الإسلام ؟ بل ما لهم يوصفون بأنهم مسلمون إذا خرجوا على منهج الإسلام وأبَوا تطبيقه في حياتهم ؟ وهم إنما كانوا مسلمين لأنهم يطبقون هذا المنهج في حياتهم لا لأن أسماءهم مسلمين ولا لأنهم يقولون بأفواههم إنهم مسلمون .

---

(١) إن مصطلح تاريخ الإسلام ليس دقيقاً في بيان المراد لأن الإسلام ليس له تاريخ المعنى الذي يطلق به كلمة التاريخ للمسلمين لأن التاريخ هو سلسلة التغيرات . والإسلام هو مجموعة السُّنن الثابتة .

وهذا ما أراد الله سبحانه أن يعلمه للأمة المسلمة . وهو يكشف أخطاء الجماعة المسلمة ، ويسجل عليها النقص والضعف ثم يرحمها بعد ذلك ويَعْفُو عنها ويُعْفِيها من جَرائِرِ النقص والضعف في حسابه وإن يكن أذاقها جرائر هذا النقص والضعف في ساحة الابتلاء ... »[1] .

هذا العرض الذي قدمه سيِّد لسنَّة فصْل المبدأ عن التطبيق ، لضمان سلامة المبدأ ، عرض دقيق ، وواضح وضوحاً تاماً . إلا أن القارئ العادي لا يفهم منه إلا النموذج الذي تعوده من تنزيه الإسلام والسمو به إلى مرتبة عالية من القداسة .

وليس هذا مراد الأستاذ سيِّد ، وإنما مراده أن يفرق المسلم حين ينظر إلى تاريخ المسلمين ، بين المبدأ الإسلامي وتطبيقه ، وألاَّ يصير الْمَسْلَكُ الذي سَلَكَهُ المسلمون ، طاغياً على المبدأ الإسلامي بحيث يصبح هذا التاريخ هو الإسلام ، ونقف منه موقف من يظن أن كشف الخطأ في هذا التطبيق هو كشف لخطأ الإسلام . وبدون هذا التفريق تصير هذه الأخطاء دِيناً نضطر أن نتمسك به ، ويُعْجِزُنا تقديسها عن كشف حقيقة المبدأ الإسلامي .

رحم الله الأستاذَ سيِّداً ... إنه بعمله هذا فتح باباً إلى حلٍّ

---

(١) الجزء الرابع من تفسير الظِّلال ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩

المشكلة ، وسهّل لنا تناول البحث ، ووضع هذه العلامة مَعْلَماً على الطريق . وعلى المسلمين الذين يهتمون بالمشكلة الإسلامية ، أن يتخذوا هذه المكتشفات التي انتهى إليها الأستاذ منطلقاً ليكملوا ماانتهى إليه . إلا أنه ينبغي أن نعرف أن الدخول إلى هذا الباب الذي فتحه ، مهمة شاقة عسيرة ، تحتاج إلى خبرة عظيمة .

وهنا أشعر بالحاجة إلى التذكير بسنة من السُّنن . هذه السُّنَّة هي : أن إمكان تقرير السُّنَّة والاعتراف بصحّتها نظرياً أكثر سهولة ويسراً - مع الأسف - من القدرة على تطبيقها تطبيقاً عملياً وتعميمها . وقد سبق أن ذكرنا رأي ابن تيمية في هذا .

إن هذه القاعدة التي ذكرها الأستاذ سيِّد هي من هذا القبيل ، يسهل التسليم بها كقاعدة نظرية ، ولكن صعبٌ جداً تطبيقها ، بل إن من سيقوم بتطبيق هذه القاعدة سيجد أن التسليم بها لم يقرب من حلٍّ المشكلة إلاَّ قليلاً ، لأن الأستاذ سيِّداً رحمه الله حين يقول :

« ونتعلم من هذا أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج ، وأنه من الخير للأمة المسلمة أن تبقى مبادئ منهجها سليمة ناصعة قاطعة ، وأن يوصف المخطئون والمنحرفون عنها بالوصف الذي يستحقونه - أيّاً كانوا - وألاَّ تُبَرَّرَ أخطاؤهم وانحرافاتُهم أبداً بتحريف

المنهج وتبديل قِيَمِهِ وموازينه ، فهذا التحريف والتبديل أخْطَرُ على الإسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ والانحراف » .

هذه القاعدة ، سهل التسليم بها نظرياً ... ولكنْ مَنْ هؤلاء الذين وَصَفَهُم سيِّد رحمه الله بكبار الشخصيات المسلمة ؟

هل نستطيع أن ندخل بالتفاصيل ونذكر بعض الأشخاص بالأسماء ؟ هنا نجد أن هذه القاعدة والتسليم بها ، لم يحل المشكلة إلاَّ جزءاً يسيراً جداً ، لأن ذكر الأسماء وتعيين الشخصيات الكبيرة المخطئة ، يدعو إلى أن تحمرَّ له الأحْداقُ وتنتفخ له الأوْداجُ . لأن الدخول في هذا الموضوع يَفْقِدُ فيهِ العقلُ السَّيْطَرةَ ، وتبدأُ العواطفُ بالعمل .

سهل أن أصف عبد الرحمن بن ملجم بأنه مخطئ سواء كنت سنيّاً أو شيعيّاً ، وكذلك سهل أن أصف معاوية بالخطأ والانحراف ... إن كنت شيعيّاً .

وفي الواقع إن تقديس التاريخ الإسلامي ـ سواء وافق الإسلام أو لم يوافقه ـ له من القداسة والقدرة على إبطال مجال العقل ، وإطلاق العواطف والقبض على مجال الحركة الفكرية ، وذلك عند الذين لم يستبينوا الفرق بين الإسلام ومطبقيه ، مما يبطل محاولات المصلحين في

إنقاذ الإسلام ومنهجه من الأخطاء التطبيقية عند المسلمين ، والتي يشعر سيِّد بضرورة تخليص منهج الإسلام منها وجعل المنهج مسيطراً على التاريخ .

إنَّ ذِكرَ أسماء الشخصياتِ الكبيرة التي يشير إليها (سيِّد) يوقع في مشكلة كبيرة ، ولن يتيسر ولوج هذا الباب إلا بعد غرس منهج العلم الذي يأمر به الإسلام . إن الإسلام لا يعطي العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ ، ولكننا معشر المسلمين في الواقع نعطي هذه العصمة للرجال . ويصعب علينا أن نرى الشخصية الكبيرة التي نُجِلُّها تُخطِئُ وتصيب كما يصعب علينا أن نقول : هذا الرأي من قوله خطأ ، وهذا صواب .

كما أننا ـ عملياً ـ لا يمكن أن نتعامل مع الشخصيات الإسلامية الكبيرة إلا على أساس التسليم لهم بكل شيء ، أو رفض كل شيء .

وتحول هذا الأسلوب إلى منهج مقرر يتحدى القواعد النظرية الإسلامية التي يحفظها كل الناس ، مثل ما تحفظ عن الإمام مالك قوله : « يؤخذ من قول كل أحد ويرد عليه إلاَّ صاحب هذا القبر ، ويشير إلى حجرة النَّبي ﷺ » ، وهذا القول مثل القول الذي يكرره سيِّد رحمه الله بأسلوب هذا العصر في الكلام الذي سبق أن اقتبسنا منه ، ولكن تطبيقه عملياً دونه خَرْطُ القَتَادِ .

وليس معنى هــذا أن بعض المصلحين لا يتجرؤون على ذلــك ، ولكن الواقع بثقله يتحدى الأفراد المصلحين ، ولن يتيسر لنا الخروج من الخلط بين السُّنَّة والتاريخ ، إلاَّ إذا تذوقنا أهمية السُّنَّة ، وطبيعة الصلة بين السُّنَّة والرجال . فالرجل ليس سنَّة ، وإنما يخضع للسُّنَّة ، ويسعى لكشفها وتطبيقها . ومهما كان هذا الرجل عظيماً فلن يتجاوز حدّ الرجل . ثم ليس مما يقلل من قيمة الرجل أن يخطئ ، وليس من شأنه ألا يخطئ ، وكل ابن آدم خطّاء . وأي شخص مهما برز في العلم لا يصير معصوماً عن الخطأ . ولكن مع أخطائه يبقى مكانه محفوظاً ، ولا يُقَلِّلَ من قيمته العلمية كونَهُ لم يُحِط بكل شيء . ولكن حسبه أن يعطي شيئاً جديداً مهما كان يسيراً . وسيحفظ لـه هذا الكشف مكانه ومقامه مهما سَبَقَهُ مَنْ جَاءَ بعده . وهذا هو التقدير الصحيح للرجال ، لا أن نرفعهم فوق ما يستحقون ، ونعطي لهم العصمة التي لم يعطها لهم الله ورسوله وأولو العِلْم القائمون بالقسط .

وفي الواقع إن تذوق العلم وحده ، هو الذي يستطيع أن يعودنا الاحترامَ الصحيح لأهل العلم ، بحيث نصل معه إلى درجة نُقَدِّرُ فيها العلم الذي عندهم ،.ونغفر لهم الخطأ الذي وقعوا فيه دون أن يصير خطؤهم غلاًّ في أعناقنا . نأخذ ما أصابوا فيه ، ونتجنب ما أخطؤوا فيه دون أن نجعل خَطَأَهُم تحقيراً لهم ، ودون أن نجعل صوابَهم عِصْمَةً لهم .

فهذا الموقف هو الذي يُنَزِّهُ احترامَ أهلِ العِلْمِ مِنَ التَّحَوُّلِ إلى نوعٍ من الوثنية ضرره أكثر من نفعه . وبهذا لا يتحول الأحبار والرهبان إلى أرباب .

ليس هدفُنا إدانَةَ التاريخ الإسلامي ولا تجريح شخصياته ، كما أن ما نقلناه عن الأستاذ سيِّد ليس هدفه أنْ يُزَلْزِلَ ثقةَ الشباب بالشخصياتِ الإسلامية الكبيرة ، ولا أن ينزع الثقة من تطبيقِ الإسلامِ على مرّ العصور . ولكنّ هدفهُ أنْ يصبح للمسلم قدرةٌ على إخضاع التاريخ للمنهج بحيث يستفيد منه الفائدة المرجوة ، ويتجنب الخطأ الذي فيه لأن التاريخ يحتوي على هذا وذاك .

إن موقف المسلمين الآن من التاريخ ليس موقفاً صحيحاً ، لأنه لا قدرة لنا على تجنب أخطائه والاستفادة من صوابه . وعلينا أن نعرف من الآراء ماهو مخطئ ومنحرف ليصير التاريخ دافعاً ومحرِّكاً إلى الأمام لا غِلاً على العنق يقيِّد العقل ويمنع من الحركة . والأستاذ سيِّد شعر بهذه الحاجة ، حاجة الموقف الصحيح من الرجال ومن التاريخ ، وشعر أيضاً بأهمية هذا الموقف . وربما هذا الشعور هو الذي جعله يكتب عن عثمان رضي الله عنه عبارة لم يتعود المسلمون أن يسمعوا مثلها من كاتب يُعَدُّ من أهل السُّنّة والجماعة . قال : « إنه لمن الصعب أن

نتّهم روح الإسلام في نفس عثمان ، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ الذي هو خطأ المصادفة السيئة في ولايته الخلافة ، وهو شيخ موهون تحيط به حاشية سوء من أُمية ذات الفطرة المشؤومة »[1] . ثم يقول بعد قليل عن الفتنة التي قامت : « ولكن لا بد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام ، ويستشعر الأمور بروح الإسلام ، أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها أقرب إلى روح الإسلام واتجاهه ، من موقف عثمان أو بالأدق من موقف مروان ومِن ورائه بنو أُمية الذين لم تخالط روح هذا الدِّين نفوسهم في يوم من الأيام » .

إن المشكلة في الواقع ، إنما في تغيير النظر إلى التاريخ من خلال السُّنن ، وليس أن يحلَّ التاريخ محل السُّنن . فحين يصير هذا النظر ثقافة في الأمة ، أعني ملكة تفهم الأمور على أساسها ، عندها نترك النزاع في خطأ رجل واحد أو أسرة واحدة . لا يكفي أن نحمل جريرة المشكلة لرجل واحد أو أسرة واحدة ، إذ المشكلة أعمّ من هذا .

وكما أنه ليس دقيقاً أن نحمل هذه التبعة رجلاً أو أسرة في الماضي ، كذلك الحال اليوم . إن تعليق هذا الموضوع في رجل أو في مجموعة حلت محل أسرة ، لا يقل في عدم دقته عن السابق .

---

(١) العدالة الاجتماعية ، ص ١٩١ وما بعدها ، الطبعة الرابعة ، مطبعة عيّسى البابي الحلبي .

إن المشكلة مشكلة نظر إلى التاريخ ، إلى الواقع البشري وما وراء هذا الواقع من الدوافع التي توجه الأحداث .

إننا حين نكتسب النظرة الصحيحة إلى التاريخ ، ووضعه في مكانه ، لا يزعجنا خطأ رجل أيّاً كان هذا الرجل ، لأن لدينا ما يعصمنا من وضع الرَّجل مكان السُّنن . إن هذا الفهم ليس يعصمنا من خطئه فقط ، بل يجعلنا نستفيد من صوابه ، أيًّا فائدة ، متخذين الصواب الذي انتهى إليه منطلقاً لنا ، لا مكاناً للوقوف عنده أو التراجع عنه . وهذا الموقف هو الذي سيجعلنا نستفيد من صواب ما عند (سيِّد) وغير سيِّد . وليس عيباً على سيِّد أن يخطئ في بعض ما يكتب ، أو يقصِّر ، ولكن عيب علينا أن لا نستفيد من صوابه والوصول به إلى المدى الذي كان يريد الوصول إليه[1] .

وأن هذا ينطبق على ما أكتب وعلى من سيكتب في المستقبل .

إن اكتساب هذا النظر إلى التاريخ يجعلنا نقدر ما عند الآخرين من النظريات الصائبة ، سواء كانوا مسلمين أتقياء أو غير أتقياء ، من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً . بل يجعلنا نستفيد من صواب أي كاتب ، سواء كان مؤمناً أم غير مؤمن ، من غير أن

(١) وكذلك الحال بالنسبة ، لابن تيمية ، وابن خلدون ، والأفغاني و ... إلخ .

يختلط علينا صوابه بكفره . وإن عدم التمييز في هذا الموضوع ، يحرمنا خيراً كثيراً . عدا أنه يجعلنا نقف مواقف تدعو إلى الأسى من المحب ، والسخرية من المبغض ، حين نردُّ بعض الحقائق العلمية لعدم إيمان أصحابها نفعل هذا دون أن نشعر .

إن النظر الصحيح إلى التاريخ يفيدنا من جانبين كبيرين : فهو يحررنا من عقدة الخوف من كشف الخطأ في تاريخ المسلمين . كما يحررنا من عقدة الخوف من كشف صواب في تاريخ الآخرين .

إن عدم بخس الناس أشياءهم مبدأ قرآني . كما أن العدل وأن لا يجرمَنّا شنآن قوم على أن لا نعدل مبدأ قرآني . كما أن قوله تعالى :

﴿ ياأيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَداءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أنْفُسِكُم أوِ الوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِيْنَ ﴾ [النساء : ٤/١٣٥] . مبدأ قرآني لنعدل في الانتصاف من أنفسنا وممن نحب هذا الحب الساذج لا حبّ المثل الأعلى الذي يشرف الإنسان ويرفع من قدره ويجعله يقدر الأصدقاء والأعداء ، بميزان العدل لا بميزان الهوى المبني على النظرات القصيرة .

وفي الختام ليس الهدف تجريح شخصيات أو تقديسها ، وإنما الهدف اكتساب موقف سليم بين الحق والرجل . وأن يبقى الحق حقّاً والرجل رجلاً . لأن الحق حق فقط ، ولكن الرجل يمكن أن يكون

محقّاً كما يمكن أن يكون مبطلاً ، وبينهما درجات كثيرة . لهذا يعرف الرجال بالحق وليس العكس .

وهذا الموقف لا يكتسبه الإنسان بأن تقول له ميِّز بين الحق والرجل ، ولكن يكتسبه من الممارسة الدائبة والسعي المتواصل .

٢ ـ جانب تعميم السُّنّة :

وأما الجانب الثاني وهو جانب تعميم السُّنّة : أي أن السُّنن الاجتماعية التي تنطبق على البشر تعمُّ المسلمين أيضاً . بل أكثر من هذا ، إن سُنّة الله في التفاعل مع المبادئ تنطبق على الإسلام أيضاً ، مع ما للإسلام من ميزة ذاتية كما يقول الأستاذ سيِّد قطب رحمه الله في كتابه (هذا الدِّين) :

« هناك حقيقة أولية بسيطة ... ولكنها مع بساطتها كثيراً ما تنسى أو لا تدرك ابتداء فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدِّين :

حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي ، حاضره ومستقبله كذلك . إن البعض ينتظر من هذا الدين ـ ما دام منزلاً من عند الله ـ أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ولواقعهم المادي في أية

مرحلة من مراحل نموهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم . وحين يرون أنه يعمل بهذه الطريقة ، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة ، والواقع المادي للحياة الإنسانية يتفاعلان معه ، فيتأثران به ـ في فترات ـ تأثُّراً واضحاً ، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيراً مضاداً لاتجاهه ، فتقعد بالناس شهواتهم وأطماعهم وضعفهم ونقصهم ، دون تلبية هتاف هذا الدين ، أو الاتجاه معه في طريقه ...

حين يرون هذا فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها ـ ما دام هذا الدين منزلاً من عند الله ـ أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته ، أو يصابون بالشك في الدّين إطلاقاً .

عدم إدراك هذا الدين وطريقته أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة ... »[1] .

هذه النقطة التي أتوقف عندها من كتابات سيّد وأريد إبرازها وأعتبرها من أحسن ما كتب ، ربما لا يشاركني بعض الطيبين من الشباب ويرون الأولى التوقف إزاء هذه الأفكار ، لا لفهم حقيقة ما يرمي إليه واتخاذها منطلقاً ، وإنما تردُّداً في صحّتها أو جدواها ، بل

(١) هذا الدّين : ص ٣ ـ ٤

ربما يرون فيها بعض الخطورة حيث تفتح باباً تدخل منه رياحٌ باردة . يشعرون بهذه النسمات الباردة بإحساس دقيق مرهف صنعته القرون الماضية ، حين أغلقوا الأبواب على أنفسهم وشمّعوها . وأرى أن الصفحة الأولى من كتاب هذا الدّين من أروع ما تركه سيّد رحمه الله . فعند الحديث عن طبيعة هذا الدّين وطريقة عمله في حياة البشر تبرز الحقائق التالية :

١ ـ حقيقة أولية بسيطة .
٢ ـ ومع بساطتها كثيراً ما تنسى .
٣ ـ ونسيانها ينشأ عنه خطأ جسيم .

ثم يقول : وحين يذكّرون بهذه الحقيقة :

١ ـ فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها .
٢ ـ أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الدّيني .
٣ ـ أو يصابون بالشك في الدّين إطلاقاً .

ثم هذه السلسلة من الأخطاء نتيجة خطأ واحد ، وهو عدم إدراك طبيعة هذا الدين أو نسيانها .

ولو أن إنساناً خصص حياته كلها لبحث هذه النقاط وكشف مصادرها التاريخية وبواعثها النفسية وآثارها الاجتماعية ، وقرّب ذلك

للأفهام وفصلها تفصيلاً حتى يبلغ درجة البلاغ المبين ، لكانت هذه الحياة ، حياة مباركة طيبة .

كم من حقائق قرآنية بسيطة على مسمع كل أحد في قارعة الطريق ! ولكن مع هذا كله لا ينتبه إليها منتبه ! وكم من المصائب التي تسدُّ علينا منافذ الحياة تنشأ عن هذا النسيان وعدم الانتباه ! وكم من الآلاف المؤلفة من الشباب يصابون بخيبة أمل ، أو بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الدِّيني حين يكشفون الحقيقة ، لأنهم يعيشون على الوهم متقوقعين ! ثم كم من الشباب يصابون بالشك في الدِّين إطلاقاً ، ويظهر عليهم آثار ذلك بأساليب مختلفة ، لكل موسم ما يناسبه ، وليس آخرها أصحاب الشعور الطويلة الذين يملؤون الأسواق ... إنه المظهر الصارخ للفراغ من الحقيقة ... إنه الامتلاء بالأوهام . أجل إنها مشكلة مجتمع ، مشكلة جيل ضائع متخم بالأوهام ، ومجاعة من إدراك سنّة الحياة .

حتى يغيروا ما بأنفسهم

ينطلق المؤلف من شرح قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ : ويحاول أن يوضح أن أساس مشكلة تخلف المسلمين ، هو جهلهم أن مشكلتهم تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها .. وبالتالي أصبحوا ألعوبة بيد أعدائهم الذين يفرضون أن المشكلات تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها ..

ويبين المؤلف أن الدعوات التي تركت أثرها العميق في تاريخ البشرية ، إنما بدأت تأثيرها على نفس الإنسان وفكره فغيرتها ؛ وإن هذا التغيير يخضع لقواعد وقوانين هي سنن الله في النفس والمجتمع التي يرتقي المجتمع أو يتخلف بحسبها ...